سلسلة محاضرات

لسماحة السيد حسن نصر الله

سرّ الحياة

دروس من كربلاء

سرّ الحياة

دروس من كربلاء

دار المودة

للترجمة والتحقيق والنشر

اسم الكتاب:	**سر الحياة - دروس من كربلاء** سلسلة محاضرات لسماحة السيد حسن نصر اللّه
إعداد:	دار المودّة للترجمة والتحقيق والنشر
إخراج وطباعة:	DBOUK 00961 3 336218
الطبعة الثانية:	2018 م–1439 هـ

ISBN: 978-614-464-؟؟؟-؟

Lebanon , Beirut , sfeir , Moukarzel street
Mob : 00961 70 724 300 | Telefax : 00961 1 270 664
info@diwan-kitab.com | Diwan.kitab.dm@gmail.com

سلسلة محاضرات

لسماحة السيد حسن نصر الله

سرّ الحياة

دروس من كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس العناوين

مقدمة الناشر 9

الفصل الأوّل

مفهوم العمر ومسؤوليّته

تمهيد 15
مفهوم العمر 18
الخصائص النظريّة لمفهوم العمر في الفهم الإسلامي 20
المسؤوليّات المترتّبة على الناس تجاه أعمارهم: 37
إدراك النعمة 38
حمد اللّه تعالى 38
حفظ النّفس من الأخطار والشرور 40
اغتنام الفرصة وعدم تفويتها 46
وقفةٌ مع بعض المرويّات النّافعة في هذا المقام 48

تنبيه وإيضاح 54
وقفة تأمليّة مع واقعة كربلاء 57
ختام الكلام 62

الفصل الثّاني

النظرة إلى الموت والاستعداد له

تمهيد 67
طلب إطالة العمر في القرآن والدّعاء 67
تقديمٌ في مسألة الموت 75
مفهوم الموت في الإسلام 78
أصناف النّاس في فهم موضوع الموت 81
المنكرون للحياة بعد الموت 82
المقرّون بالحياة بعد الموت 83
أهل المعرفة والإيمان 87
كلامٌ في مصاديق الصنف الخامس 89
الفهم الصحيح للموت بحسب المروي عن أهل البيت عليهم السلام 93
مسؤوليّاتنا في قِبال الموت 97
التهيّؤ للموت والاستعداد له 102
وقفةٌ مع كربلاء 105

الفصل الثالث

خصائص الشّهادة والشّهداء

تمهيد 111
مقدمة تأسيسيّة 112
مقام الشّهادة ودرجة الشّهداء 115
كرامات الشّهداء عند اللّه 117
مفهوم الشّهادة وحقيقة معنى الشّهيد 126
في تحديد سبيل اللّه 131
بعض النماذج التقريبيّة 133
في البحث عن معيار للحق 136
في الخصائص المفترضة للفقيه 139
نماذج واقعية لفعاليّة دور الفقهاء 143
تنبيه لا بدّ منه 146
تجربة المقاومة الإسلاميّة 149
وقفة ختامية مع مناسبة يوم الشهيد 153

مقدمة الناشر

إنَّ الفهم الصحيح لدورنا في الحياة الدّنيا، ومسؤوليّتنا تجاه النعمة الإلهيّة المتمثلة بالأعمار الّتي منحها اللّه لنا على متن رحلة العمر، يفرض علينا نمطًا خاصًّا من التعاطي إزاء المسؤوليّات الكبيرة الملقاة على عاتقنا. كما أنّ يقيننا بالاستحقاق الأكبر، ألا وهو الموت، يدفعنا للحرص التامّ على اختتام رحلتنا هذه بأفضل طريقة ممكنة.

وإذا كانت «الشهادة ميتة ليس كمثلها ميتة، بل هي كيفيّة خاصّة من الموت، وإذا كان لا بدّ من الموت فأفضل الموت موت الشّهادة، وأن يغادر الإنسان الدّنيا

إلى الآخرة عبر بوّابة الشهادة، حيث يقال إنَّ للجنة أبواب عدّة أحدها باب الشّهداء، وهو أقصر الأبواب طريقًا إلى الجنّة وأوسعها».

فما هي فلسفة الأعمار الّتي منحها اللّه لنا؟ وما هو الـدّور المطلوب منّا والمسؤوليّات المترتبة علينا في الحياة الدنيا؟ وكيف سنواجه استحقاق الموت؟ وماذا عن الجهاد والشّهادة؟ فهل كلّ قتال هو جهاد؟ وكلّ موتٍ أو قتل هو شهادة؟ كيف يكون القتال في سبيل اللّه عزّ وجل؟ وما هي محدّدات هذا القتال والشهادة المترتّبة عليه؟

هذه الأسئلة وغيرها تطرّق إليها سماحة السيد حسن نصر اللّه في سلسلة محاضرات كان قد ألقاها في المجلس العاشورائيّ المركزيّ في مجمع سيد الشهداء عليه السلام في الليالي الثالثة والخامسة والسابعة من شهر محرم الحرام من العام 1435هـ، الموافق 6 و8 و10 تشرين الثاني 2013م، وقد عمل دار المودّة للطباعة والنشر والتوزيع

على تحريرها وتنضيدها وتقديمها لقرائه في كتاب «سرّ الحياة»، ضمن سلسلة محاضرات سماحة السيد حسن نصر اللّه حفظه اللّه.

الفصل الأوّل

مفهوم العمر ومسؤوليّته

تمهيد

سنتناول في كلامنا الآتي موضوعًا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالبُعد الثّقافي لعاشوراء وكربلاء، ألا وهو موضوع الشّهادة وطلبها وعشقها.

يُعدّ هذا الموضوع من الموضوعات الّتي يحوطها لبسٌ كبيرٌ يقع فيه بعض النّاس، حيث إنَّ البعض يطرح فكرة طلب الشّهادة وقيمتها بشكل يوحي أنّ رسالات السماء عمومًا، ودعـوات الأنبياء عليهم السلام – وخصوصًا الرسالة الإسلاميّة والدين الإسلامي – تدفع بأتباعها دفعًا نحو الموت، وأنَّ على المؤمن حقًّا السعي دائمًا نحو الموت، وكأنّ مفهوم الحياة في هذه الأديان مفهومٌ ناقصٌ لا قيمة له، بل وكأنَّ القيمة كلها لطلب الموت، ما يوحي أنَّ في تعاليم هذه الأديان مشكلةً مع عيش النّاس حياتهم عيشةً هنيئةً.

وإشكالية كهذه إنّما تنشأ عادةً عن معالجة القضايا وتناولها من بعدٍ واحدٍ وبشكل مجتزأ وغير مكتمل، وهذه المعالجة تعوزها الموضوعيّة لما تهمله من التّناول التامّ والشامل لمختلف جنبات موضوع البحث.

وتظهر إشكاليّة مشابهة أيضًا عند تناول موضوع الزهد والحثّ عليه في تعاليم الدين الإسلامي، في حين قد يتصوّر البعض أنّ تعاليم الدّين الإسلاميّ تدفع نحو هجران الدنيا وترك التنعّم بها، والتطلّع فقط إلى الآخرة، وهذه طبعًا مفاهيمٌ ملتبسة ينبغي تصويبها.

لن أقف في معالجتي على الجوانب الذهنيّة والفكريّة المنفصلة عن الجانب المسلكي والحياتي، بل سأعالج الموضوع من ناحية تأثيره على سلوكنا وحياتنا، لما يعود به ذلك من نفع علينا في تحديد كيفيّة الاستفادة من أعمارنا الّتي كتبها اللّه لنا.

وعليه، سينقسم الكلام في هذا البحث إلى مطالب عدة. أمّا الفصل الأوّل فينقسم إلى قسمَيْن، سأتناول في

أوّلهما موضوع العمر والحياة الّتي نعيشها، عبر تعريف هذا المفهوم وفقًا للفهم الإسلامي له، إضافة إلى المفاهيم المتعلّقة به والوقوف عندها، ثمّ أتناول ثانيًا موضوع المسؤوليّة المترتّبة على كلّ فرد في حياته هذه وعمره هذا. وبعبارة أخرى، إنّ لكلّ منّا حياةً خاصّةً وعمرًا خاصًّا وهبه اللّه إيّاه، فما هي مسؤوليّتنا – أنا وأنت – تجاه هذه الأعمار؟ والمسؤولية المطروحة هنا هي المسؤولية الشرعيّة التي تفرضها علينا التعاليم الإسلاميّة.

بعدها نقف في الفصول التالية على مفهوم الشّهادة، وما يتعلّق به من موضوعات طلب الموت، وطلب العيش، والدّعاء بطول العمر أو بتقصير العمر، واختلاط هذه الأمور في الأفهام العامّة، ثمّ نذهب بعدها إلى مفهوم الشهادة بمقاربة متناسبة ومرتبطةٍ بطبيعة المناسبة التي نعيش ذكراها في هذه الأيام[1].

(1) ألقى سماحته هذه المحاضرات خلال الليالي الثالثة والخامسة والسابعة من شهر محرم الحرام من العام 1435هـ، الموافق 6 و8 و10 تشرين الثاني 2013م.

مفهوم العمر

ينبغي السؤال أوّلًا عن معنى مفردة «العمر»، ولا شكّ أنّ معناها من الأمور الواضحة المعلومة لدى الجميع، ولكنّنا نخوض في هذا المطلب على سبيل التحديد. والمعروف في هذا الصدد عند الناس أنَّ عمر الإنسان هو الزمن الّذي يعيشه، فعمري هو المدّة الزمنيّة الخاصّة بي الّتي أمضيها في الحياة الدّنيا، وعمر كلّ إنسان هو المدة الخاصّة به التي يمضيها حيًّا.

لقد تناول بعض المفسّرين الموضوع بالبحث عن أصل المفردة ومصدر اشتقاقها، فذهبوا إلى القول بأنَّ أصل المفردة مأخوذٌ من فكرة أنَّ اللّه سبحانه عندما يولج الرّوح في الجسد، فإنَّ الجسد يَعمُر بهذه الرّوح، كما أنَّ الروح عند انفصالها عن الجسد فإنّه يبلى ويتفتّت ويخرب وينهار بذلك. فمفردة «العمر» مأخوذة من العمارة والعَمْر، وهي عبارة عن الزمن الّذي تسكن فيه الروح جسد الإنسان، وهذا هو تعريف «العمر».

ولكنَّ المتعارف والسائد، بل والمتّبع عقلائيًا، أنَّ تحديد عمر الإنسان إنّما يستند إلى لحظة ولادته وخروجه من رحم أمّه إلى الحياة الدّنيا، لا إلى انعقاد النطفة في رحم الأم، أو ولوج الرّوح في بدن الجنين في رحم الأُم. فنحن عندما نقول إنَّ عمر فلان عشرون سنةً، مثلًا، فإنّنا نبدأ بالحساب من حين الولادة، أيْ من حين خروج الطفل من رحم أُمّه، لا من حين انعقاد النطفة أو ولوج الرّوح. وعلى ذلك، فالعمر يبدأ بخروج الإنسان إلى الدّنيا، وينتهي في اللّحظة الّتي تخرج فيها روح الإنسان من جسده، أيْ عند لحظة النزع التي تنتزع فيها ملائكة الموت روح الإنسان من بدنه، فهنا تكون نهاية عمر الإنسان.

وينبغي الالتفات إلى أنَّ مفردة «العمر» تتداخل معها مفردات أخرى، تقربها معنًى كالحياة والعيش وغيرها. ولكنّ الغرض والغاية التي قد نصل إليها في معالجة كلّ هذه المفردات واحدة، وعليه فلسنا ملزمين بهذه الدّقة الفلسفيّة في تناول المفردات والتمييز بين أحكامها.

الخصائص النظريّة للعمر في الفهم الإسلامي

إنَّ للعمر الذي يعيشه كلّ واحد من بني الإنسان خصائص وميزاتٍ وأحوالًا أو جوانب ينبغي استعراضها في سبيل الوصول إلى الفهم الإسلامي لموضوع العمر، والتوجيه الذي تدفع تعاليم هذا الدين نحوه، بالإضافة إلى الرؤية الكاملة التي يقدمها الإسلام حول هذه القضية. وهذه الخصائص نذكرها في ما يلي:

أولًا: نحن بنو الإنسان – أنا وأنت وكلّ واحدٍ منّا – لا نختار بدايةً أعمارنا كما لا نختار آباءنا وأمّهاتنا، فليس لنا في ذلك كلّه شأنٌ ولا رأي، ذاك أنَّ الواحد منّا لم يكن قبل انعقاد نطفته وقبل ولادته شيئًا مذكورًا، فلم يكن له وجودٌ فضلًا عن أن يكون له إرادةٌ ورأيٌ واختيارٌ ومشيئةٌ واقتراحٌ ونصيحةٌ وفكرة، بأن يكون أبي فلانًا وأمّي فلانة، وأنّي أريد المجيء في هذا الزمن أو ذاك.

إذًا، اللّه سبحانه وتعالى هو الّذي يحدّد للإنسان

ميعاد بدايته، وهو الذي يختار له الأبوَيْن وزمن الولادة، والبيئة، والجيل، والعصر. فأحوالنا كلّها بيده سبحانه وتعالى، وكلّ هذه الظروف خاضعة بالتمام لإرادته، وليس لك يا ابن آدم أيّ دورٍ أو أثر أو مشورة. ومن بديع ما ورد في أدعية أهل البيت عليهم السلام دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، وفي فقراته يتناول كلّ هذه المراحل، ولكنّ المقطع الذي يعبّر عن هذه الخاصية هو ما يقول فيه الإمام الحسين عليه السلام:

«**وَمِنْ قَبْلِ** [أي من قبل أن تخرجني إلى الدّنيا، ومن قبل الولادة] **رَؤُفْتَ بى بِجَميلِ صُنْعِكَ، وَسَوابِغِ نِعَمِكَ، فابْتَدَعْتَ خَلْقي مِنْ مَنِّي يُمْنى، وَأسْكَنْتَني فى ظُلُمات ثَلاث، بَيْنَ لَحْم وَدَم وَجِلْد، لَمْ تُشْهِدْني خَلْقي**، [أي أنّي ما كنت شاهدًا على شيء من ذلك كلّه، ولا شأن لي في شيء من ذلك] **وَلَمْ تَجْعَلْ إلَيَّ شَيْئاً مِنْ أمْري**، [أي أنّك أنت يا رب الّذي تكفّلت بكل شيء] **ثُمَّ أخْرَجْتَني لِلَّذي سَبَقَ لي مِنَ الْهُدى إلَى الدُّنْيا تامّاً سَوِيّاً** [وسيعود في

مورد لاحق في الدعاء نفسه ليشكر اللّه على نعمة خلقه في زمن الإسلام، وفي بيئة الإسلام... إلخ]».

ثانيًا: إنَّ العمر الّذي يعيشه الإنسان، كلّ إنسان، هو عمر منقطع له نهايةٌ وحدّ، وليس في هذه الدنيا خلود وبقاء لأحدٍ أبدًا، بل الموت حاقٌّ لا محال بجميع من فيها، يقول اللّه تعالى في كتابه الكريم مخاطبًا رسوله، وهو أعظم الخلق طُرًّا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، ويقول أيضًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2]، فلا مفر لأحدٍ من الموت، ولا عاصمَ منه، لا جبلَ ولا ملجأَ ولا ملاذَ، بل وكما قال اللّه تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[3].

ثم إنَّ من سمات هذه النهاية البارزة أنّها تأتي بغتةً وعلى حين غفلةٍ من صاحبها، فقد يأتي الإنسانَ الموتُ

(1) سورة الزمر، الآية 30.

(2) سورة آل عمران، الآية 185.

(3) سورة النساء، الآية 78.

وهو في أحسن أحوال العافية والصّحة البدنيّة، وفي أوفر أحوال التنعّم وإقبال الدنيا عليه من كلّ جانب، فيفاجئه الموت ويخطفه من كلّ هذا النعيم. وعامل البغتة هذا يجب أن يبقى شاخصًا ومستحضَرًا في فكر كلٍّ منّا، لكي لا نغفل لحظةً عن واقعٍ متاخمٍ لنا قد يفاجئنا في أيّ وقتٍ وهو الموت.

ثالثًا: إنَّ عمر الإنسان يُعدّ بالمقاييس الزمنيّة العرفيّة قصيرًا ومحدودًا. فلو نظرنا إلى أحوال الإنسان، فكم سنجده يعيش؟ البعض يموتون في سنّ العشرين، وآخرون في سنّ الخمسين، وغيرهم في سنّ السبعين، والمتأخّرون منهم يموتون في سنّ التسعين، فهل تُعدّ هذه الأعداد من السنوات مُددًا طويلةً؟ ثمّ لو قمنا بإجراء عملية فحص واستقراء لأعمار النّاس في أزمنتنا المتأخّرة، فكم سنجد معدّل عمر الإنسان؟ إنَّ معدل أعمار بني البشر منذ 1500 أو 2000 سنة إلى اليوم يتراوح بين السبعين إلى التسعين سنةً، ويبلغ في حدوده القصوى

المئة وبضع عشرات من السنين، وقد ساد منذ مئات السنين بين البشر أن يُعتبر من قطع منهم المئة سنة معمّرًا، أيّ طويل العمر، مع أنَّ هذه كلّها ليست إلا أزمنةً قصيرةً ومددًا ضيقةً، وما العشرون والخمسون بل والمئة والمئتا سنة مقارنةً بعمر الكون الممتد مليارات السنوات إلّا جزءًا صغيرًا وزمنًا قصيرًا لا اعتبار له.

رابعًا: إنَّ هذا العمر القصير، سريع الزوال والانقضاء، وهي سمة مغايرة للسمة السابقة، مفادها أنَّ العمر إنّما ينقضي ما بين غمضة عين وانتباهتها، ودليله الوجدان الشاهد عليه، إذ لو سأل أحدنا نفسه الآن عن عمره كيف انقضى؟ – ولنفرض أنّ عمره كان أربعين أو خمسين أو ستين أو حتّى تسعين سنةً – فإنّه سيجيب بأنَّه كأنّما بالأمس قد وُلد، وكأنَّ سنوات عمره هذه انقضت كلّها في ساعتَيْن أو ثلاث، فالعمر كما ذكرنا سريع الانقضاء.

ومن ذلك ما تخبرنا به الآيات عن سؤال اللّه سبحانه وتعالى وملائكته للنّاس يوم القيامة عن لبْثِهِم في الحياة

الدّنيا، وكيف يكون جوابهم، ونستشهد هنا بآيتَيْن: الأولى قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾[1]، فكأنّهم في حالٍ من الضياع والحيرة بين اليوم أو بعضه، ولسان حالهم أنْ لا تسألنا بل اسأل من كان يعدّ، فيأتيهم الجواب: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، ولكنّ هؤلاء المذكورين في هذه الآية القائلين ﴿يَوۡمٌ أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ أفضل حالًا من الّذين تذكرهم الآية الثانية، أولئك الّذين غرقوا في حبّ الدنيا واغترّوا بزخارفها ومباهجها، فشعورهم بالوقت يكون أقصر، حيث قال فيهم اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾[3]، فيشعر أنَّ كل تلك السنين الّتي قضاها والّتي قد تكون بلغت الثمانين أو التسعين سنةً، أو حتّى أكثر من ذلك، كلّ تلك السنين يشعر أنّها كانت ساعةً

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 112 و113.

(2) سورة المؤمنون، الآية 114.

(3) سورة الروم، الآية 55.

من نهار، ولنعم ما يكمل به اللّه الآية إذ يقول: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾[1].

خامسًا: إنَّ زمن النهاية – وعلى غرار زمن البداية المعلوم المشخّص بحين ولادة الإنسان وخروجه فعليًّا إلى الحياة – مجهولٌ، ومن غير الممكن العلم به، والنهاية هي كما سبق الذكر وقت الموت وحين الأجل، فعلم ذلك كلّه محصور بالله سبحانه وتعالى، والّذي بيده الآجال والأعمار، ولا يمكن لعموم النّاس العلم به. نعم، قد يُطلع اللّه سبحانه بعض أنبيائه وبعض رسله وبعض أوليائه، وفي حالات معيّنة ولمصلحة وغاية معيّنة، على علم المنايا والبلايا، أو يُطلع بعض ملائكته أو ملك الموت وما شاكل على ذلك.

أمَّا نحن، عوامُ بني البشر، فلا سبيل لنا للعلم بذلك. ولذا، فالإنسان تلازمه دائمًا حالتا الأمل والخوف، أملٌ بالحياة وطول العمر، وخوفٌ من الموت

(1) سورة الروم، الآية 55..

الّذي لا يأتيه إلا بغتةً، ولا يدري في أيّ حالٍ يكون حينما يأتيه، أَفي حال نوم أو في حال يقظة، أَفي حال جلوس أو في حال وقوف، أَفي حال طاعة وعبادة أو في حال معصية.

إنَّ إخفاء النهاية عن الإنسان إنّما كان لحكمة إلهيّة بالغة، ولمصلحة متعلّقة بالإنسان نفسه وبعيشه حياةً متوازنةً، وهذا كله يظهر لو فرضنا أنَّ الواقع غير الواقع. فلو أنَّ إنسانًا مثلًا علم أنّه سيموت بعد ستة أشهر، وأنت بعد سنة، وهي بعد أسبوعين، وهو بعد ثلاث سنوات، فكيف سيعيش الإنسان هذه الأوقات المتبقّية مع علمه بموته، حتى أكلهم وشربهم ونومهم. على كلّ حال، من رحمة اللّه سبحانه وتعالى أنَّه أخفى عن عباده زمن الموت، زمن النهاية بالنسبة إليهم.

سادسًا: من السّمات البارزة أيضًا أنَّ هذه النهاية وهذا الموت مجهول الكيفيّة، فلا يمكن لإنسان أن يعرف كيف سيكون موته، أَعَلى فراش المرض، أم بحادث سير، أو

مقتولًا، أو شهيدًا، أم أنّه سيموت موتًا مفاجئًا بعد أن عاش عمره سليمًا معافًى، كما أنَّه لا يمكن لإنسان معرفة التفاصيل الأخرى المتعلّقة بموته، كمثل المكان الّذي يكون فيه موته؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾[1]، بل كلّ هذه التفاصيل محجوبة عن الإنسان لحكمة ورحمة من اللّه سبحانه وتعالى.

سابعًا: أنَّه، وبرغم ما ذكرنا من أنَّ نهاية عمر الإنسان أمرٌ مجهولٌ بالنسبة إليه ولا يعلمه إلا اللّه؛ لأنّ الأعمار والآجال بيده سبحانه وتابعة لإرادته، ولكنّه تعالى برحمته الواسعة قد فتح للناس أبوابًا جعل معها للإنسان إمكانيةً للتدخل في تحديد وتغيير أمر موته وأجله. وهذه المسألة سأذكرها باختصار لأنّها مشتقّة من بحث عقائدي ذي بعد فلسفيّ معقّد، ولا يتناسب ذكرها بتفصيلها مع طبيعة بحثنا المبسّط والمقتضب هذا.

فنقول: قد ورد في أدبيّاتنا وتعاليمنا الإسلاميّة

(1) سورة لقمان، الآية 34.

والقرآنيّة أنَّ أجل الإنسان قسمان: الأجل المحتوم، المحسوم، القطعي، وهو الأجل المقضيّ بشكل مبرم من اللّه سبحانه وتعالى، وهناك الأجل المعلّق والموقوف، وهو الأجل الّذي قد تتدخّل المشيئة الإلهيّة لتُغيِّر في ظروفه ومتعلّقاته نتيجة أسباب وعوامل معيّنة، قال تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1]. وهذا كما ذكرت بحثٌ دقيقٌ سأكتفي منه بالجانب الّذي يخدم بحثنا هذا، وهو أنَّ اللّه سبحانه وتعالى – بحكمته ورحمته – فتح أمام عباده بابًا ليكون لهم دورٌ في تغيير ظروف آجالهم – وعلى العكس من موضوع بدايةِ العمر الّذي ذكرناه أنَّه لا يكون للإنسان في تحديدها رأي أو دور – ذاك أنَّ الأجل المعلّق إنّما تتبدل ظروفه بفعل الإنسان، وهذا أمرٌ أخبر به أنبياء اللّه عليهم السلام، ورسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، فأقرّوا بأنّ هناك من الأعمال الصالحة ما ينتج عن الإتيان به الإطالة في عمر فاعله والتأخير في

(1) سورة الرعد، الآية 39.

أجله، وبأنَّ هناك من الأعمال السيّئة ما ينتج عن الإتيان به سخط اللّه سبحانه وتعالى وغضبه والإنقاص من عمر فاعله، وتقليص مدّة عيشه في هذه الدنيا نتيجة لذلك الفعل المذموم.

وعلى ذلك، فإنَّ لنا بصفتنا بشرًا مدخليّة ودورًا وتأثيرًا في القرار الإلهي، وفي المشيئة الإلهيّة المتعلّقة بموضوع زيادة الأعمار أو الانتقاص منها، وهذا كلّه بإذن من اللّه سبحانه وتعالى، وبرحمة منه سبحانه وتعالى بنا.

وقد وردت في هذا الشأن مرويّاتٌ كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر، أنَّ من حسُن برّه بأهل بيته زيد في عمره[1]، وأنَّ برّ الوالدَيْن بمعنى محبة الوالدَيْن والتذلّل لهما يطيل الأعمار[2]، كما أنَّ صلة الأرحام تطيل

(1) ورد في المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «مَنْ صَدَقَ لِسَانُهُ زَكَى عَمَلُهُ وَمَنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ زِيدَ فِي رِزْقِهِ وَمَنْ حَسُنَ بِرهُ بِأَهْلِ بَيْتِهِ مُدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ»، الكليني، الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، الحديث 11.

(2) ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «من سره أن يُمَدّ له في عمره، ويُبسط رزقه، فليصل أبويه، وليصل ذا رحمه»، المحدث النوري، مستدرك الوسائل، كتاب النكاح، باب جملة من حقوق الوالدين الواجبة والمندوبة، الحديث 17.

الأعمار[1]، والعناية بالفقراء والمساكين والأيتام والتحبب إليهم والتواضع لهم وتكفلهم ورعايتهم والعناية بهم تطيل الأعمار. وفي مقابل ذلك، فإنَّ عقوق الوالدَيْن يُقصّر من الأعمار، وكذا قطيعة الرحم تُنقص من الأعمار، وبعض الموبقات كالزنا خصوصًا تنقص من الأعمار، وارتكاب جريمة القتل ينقص من الأعمار، إلى غير ذلك من المرويّات الّتي تفيد أنَّ هناك بابًا فتحه اللّه للعباد في خصوص موضوع العمر والأجل هو باب الزيادة والنقصان، ولكن ذلك كلّه خاضعٌ وراجعٌ كما ذكرنا وأشرنا إلى مشيئة اللّه سبحانه وتعالى.

ثامنًا: إنَّ العمر الذي نعيشه – وهذا أمرٌ ندركه جميعًا – ينقسم إلى مراحل عدّة؛ فمرحلة ما بعد الولادة والرضاعة والطفولة أوّلًا، ثمّ مرحلة الفتوّة واشتداد العود، ثمّ بعدها مرحلةُ الرجولة. وهذه المراحل كلّها تندرج

(1) ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «صِلَةُ الرَّحِمِ تُهَوِّنُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهِيَ مَنْسَأَةٌ فِي الْعُمُرِ [أي تطيل العمر] وَتَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ»، الكليني، الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب صلة الرحم، الحديث 32.

ضمن مرحلة كبرى هي مرحلة القوس الصعودي، والّتي يأتي من بعدها مرحلة كبرى هي مرحلة القوس النزولي، وتشتمل بدورها على مراحل تفصيلية كالشيخوخة والهرم وغيرها. ومرحلتا الصعود والنزول المذكورتان هما بلحاظ نموّ وقوّة الإنسان، فمع بداية قوس النزول فإنّ قوّة هذا الإنسان تبدأ بالفتور. وبلحاظ هذا التقسيم، فإنّ حياة الإنسان بلحاظ اشتداد قواه وضعفها تتمثل بخطٍّ بيانيٍّ يبدأ متصاعدًا، ليصل إلى حدٍّ معين، يأخذ بعده بالهبوط. وقد حدّدت بعض الأحاديث الشريفة هذا الحدّ بسن الأربعين[1]، فلو تصورنا أمامنا خط عمر الإنسان البياني لكانت النقطة الأعلى فيه منذ الولادة وحتى الوفاة هي سن الأربعين، والّتي يتجّه بعدها القوس نزولًا.

وقد ورد في بعض المرويّات تقسيم لفئات الناس

(1) روي في الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «إذا بلغ العبد ثلاثًا وثلاثين سنةً فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنةً فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع»، انظر، الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآيات 15 إلى 20 من سورة الأحقاف المباركة، البحث الروائي.

المخاطّبين في القرآن والروايات الشريفة بحسب هذا التقسيم، بأنَّ هذه الآيات والروايات مثلًا خطاب لفئة الشباب في عمر العشرين، وهذه خطاب لابن الأربعين سنة، وتلك لابن الستين، ومن كان بين ذلك وبين السبعين سنة فله أيضًا خطاب وتحذير، وهكذا. وقد ورد في القرآن ذكرٌ للمراحل في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1].

تاسعًا: هي النقطة الأخيرة في مقومات الفهم المطلوب لموضوع العمر في الرؤية الإسلاميّة، نطرحها قبل الخوض في الشقّ الثّاني المتعلق بالمسؤوليّات، ومفادها أنَّ هذا العمر هو الفرصة الوحيدة المتاحة لنا. فاليوم عمل ولا حساب، وعندما تنقضي هذه الفرصة وننتقل بالموت إلى العالم الآخر، إلى عالم البرزخ ثم إلى القيامة، فإنَّ كلّ

(1) سورة غافر، الآية 67.

فرص العمل وإصلاح الحال لدينا ستكون قد انقضت، ولا يكون للإنسان من نصيب هناك إلّا التمني بأن يعيده اللّه سبحانه وتعالى إلى الدّنيا ليصلح حاله، وقد أخبرنا اللّه في كتابه عن أماني الإنسان وطلباته حال الموت، وأخبرنا عن الإنسان يوم القيامة كيف يتوسل إلى اللّه سبحانه وتعالى أن يعيده إلى الدنيا ولو لأيّام أو لساعات أو لدقائق ليعمل عملًا صالحًا، بل ليملأ الدنيا ويعمرها بالصالحات والطاعات والعبادات، وذاك لهول ما يكون قد رأى بعد الموت، ولشدّة ما يكون عليه من الحسرة والندامة على تفويت تلك الفرصة التي سنحت له في الحياة الدنيا وفوّتها بجهله.

وعن وصف هذه الحال من الندامة على تفويت هذه الفرصة، يخبرنا القرآن الكريم بما يقوله الإنسان، إذ يقول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾[1]؛ أي ردّوني إلى الدّنيا، واعطوني فرصةً بدل

(1) سورة المؤمنون، الآية 99.

تلك التي ضيّعتها، لأنَّه حال الموت ينكشف للّذي ضيّع تلك الفرصة مقعده ومصيره الّذي هو صائر إليه، فيقول: ﴿ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[1]، فيأتيه الجواب جازمًا: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[2]. وقد تسهل علينا قراءتها الآن، ولكنَّ أحدًا لا يتصوّر كيف تخرج كلمة «كلّا» هذه هناك، وكيف يسمعها الإنسان في لحظات النزع الرهيبة تلك، هذا موضوع مختلف ليس هنا مورد بسطه، والله أعلمُ بواقع الأمور يومذاك.

كما يخبرنا القرآن عن حال المجرمين يوم القيامة بعد دخولهم جهنّم، يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾[3] أي في جهنّم، ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾[4]، فنرجوك ونتوسل

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 99 و100.
(2) سورة المؤمنون، الآية 100.
(3) سورة فاطر، الآية 37.
(4) الآية نفسها.

إليك أن تخرجنا من النّار وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا، ونحن نعدك ونجزم بأنّنا سنعمل غير الّذي كنّا نعمل، وسنستثمر الوقت الّذي كنا نضيّعه بالتوافه بخير من ذلك ممّا تحبه وترضاه، نتضرّع إليك أن تعيد إلينا تلك الفرصة، فيأتيهم جواب اللّه: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾[1]، أيْ أَوَلَم نتح لكم فرصةً طويلةً للعيش؟ بعضكم عاش أربعين سنةً، وبعضكم خمسين سنةً، وآخرون بلغت سني حياتهم المئة والمئة والعشرين سنةً، أَوَلَم يكن ذلك كافيًا؟ أليست كلّ هذه السنين فرصةً كافيةً للتنبّه إلى الحال وتذكّر الوعد والوعيد والاستيقاظ من الغفلة والتوبة من الذنوب وإصلاح ما فسد والاستفادة من الفرص؟ يقول تعالى: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[2] فيُقفل الحساب ولا مجال للنّجاة بعدُ من العقاب.

(1) سورة فاطر، الآية 37.

(2) سورة فاطر، الآية 37.

إذًا، ما دمنا في هذه الحياة الدّنيا، وما دامت أرواحنا في أجسادنا، فالفرصة ما زالت متاحةً، ولكن إلى متى ستبقى هذه الفرصة متاحةً؟ والجواب أوردناه في النقاط المذكورة سابقًا، فالله يعلم إن كانت هل ستمتدُّ ساعةً أم ساعتين، أو يومًا أم يومين، أو سنةً أم سنتين؛ وبالتّالي يجب أن نعرف – بعد أن مضى من عمرنا ما مضى – قيمة هذا العمر المتاح أمامنا الّذي لا نعرف مداه، وما له من أهميّة كبيرة وأثر عظيم على آخرتنا.

كانت هذه أبرز سمات وخصائص عمر الإنسان من البداية إلى النهاية، مرورًا بالطبيعة وسرعة الانقضاء والمحدودية والقِصَر وغيرها ممّا سبق ذكره.

مسؤوليّات الناس تجاه أعمارهم:

استكمالًا لما طرحناه، نقف الآن عند أهمّ المسؤوليّات المترتّبة على كلّ واحدٍ منّا تجاه عمره وحياته الّتي يحياها،

والّتي تُعدّ كما ذكرنا نعمةً إلهيةً أنعمها اللّه علينا، وفرصةً أعطانا اللّه إيّاها لنستثمرها في ما فيه خيرنا وصلاحنا.

إدراك النعمة

المسؤوليّة الأولى المترتّبة على كلٍّ منّا هي أن ندرك ونعرف أنَّ هذا العمر الّذي أعطانا اللّه إيّاه بإيجادنا وإتمام خلقنا وإتاحة الفرصة لنا – وعبر تسخير كلّ هذا الوجود لنا – أن نعرف أنَّ هذا كلّه إنعامٌ من اللّه علينا، بل أن ندرك أنَّ نعمة الوجود من أعظم النّعم الإلهيّة على الإنسان، وأنَّ اللّه سبحانه وتعالى لو شاء لما خلقنا ولما أوجدنا ولما أعطانا فرصة العمل والتكامل في هذه الدّنيا.

حمد اللّٰه تعالى

تأتي المسؤوليّة الثانية، بعد معرفة النّعمة وإدراك كونها نعمةً، أن نشكر اللّه على هذه النّعمة، نشكره سبحانه باللّسان وبالقلب والعقل، والّتي هي بالأصل نعم من اللّه

أيضًا، ومن مظاهر تفضّله وجوده وكرمه، فنعم اللّه أكثرُ من أن تُحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1].

والتأكيد على هذا الأمر ضروريّ؛ لأنَّ بعض النّاس قد يظنّون أنَّ ما يعيشون فيه من النعم إنّما هو بفعل أيديهم. وقد حدّثنا القرآن عن نماذج كهذه، منها قارون مثلًا الّذي قال بعد أن حدّثه النّاس بما أنعم اللّه عليه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[2]، أيْ إنَّ ما أنا فيه من النّعم إنما استحصلْتُ عليه بقوّتي وحسن تدبيري، ورجاحة عقلي، والله لا دخل له به. فيجب أن يدرك الإنسان جيّدًا ويؤمن إيمانًا كاملًا أنَّ ما به من نعمة فمن اللّه سبحانه وتعالى، وهذا جزءٌ أساسيٌّ من الإيمان بالله وبالرسول وبالرسالة السماوية، وجزءٌ أساسيٌّ من التديّن بدين النبي الأكرم محمد ﷺ. ثمّ بعد الإيمان أنَّ ما به من نعمة فهو من اللّه، يتوجّب شكر اللّه على هذه النعم

(1) سورة النحل، الآية 18.

(2) سورة القصص، الآية 78.

باللّسان والعقل والقلب والعمل والسلوك، إذ بالشكر تدوم النّعم وتزداد وتكبر. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، فعندما نشكره على المعرفة فإنَّه يزيدنا معرفةً، وعندما نشكره على العلم يزيدنا علمًا، وعندما نشكره على الطّاعة يوفقنا لطاعاتٍ أكبر، وعندما نشكره على الرّزق يعطينا رزقًا أوسع، وعندما نشكره على النّصر يُتبِعه بنصر آخر، وهكذا.

حفظ النّفس من الأخطار والشرور

أما المسؤوليّة الثّالثة أمام أعمارنا – وهو موضوع يحتاج إلى بعض التدقيق – هي الحفاظ على الأعمار، وذلك عبر حفظ النّفس وحمايتها من كلّ ما يودي بها. ومحلّ التدقيق أنّ بعض الناس قد تستغرب هذا القول، ظنًّا منهم بأنَّ هذه لم تكن دعوة الدّين والأنبياء، ولكنّنا نؤكّد في هذا المقام على أنَّ المحافظة على الأعمار وعلى

(1) سورة إبراهيم، الآية 7.

الحياة هي من أهم المسؤوليّات الشرعيّة، وكذلك طبعًا المحافظة على حياة الآخرين مسؤولية، ولكنّ هذا بحث مختلف ليس هذا محل طرحه والخوض فيه.

ويترتّب على كون الحفاظ على الحياة مسؤوليةً شرعيةً على كلّ واحدٍ منّا، بأن تصير كلّ الأسباب الموجبة للحفاظ على حياة وعمر الإنسان – لأكبر فترة زمنيّة ممكنة في الحياة الدّنيا – إمّا واجبة أو مستحبّة التحقيق، وبالعموم يصير السعي إلى تحقيقها مطلوبًا ومحبوبًا ومرغوبًا إلى اللّه سبحانه، وفي المقابل يصير ما يؤدّي إلى انقضاء العمر وضياعه وإتلافه أمرًا واجب الاجتناب، وتصبح الوقاية منه أمرًا مطلوبًا. وإنَّ في ديننا الإسلامي وفي تعاليم فقهنا وشريعتنا شواهد على هذا الفهم وعلى هذا المعنى، وبالتّالي على تحديد المسؤولية المذكورة، فمثلًا، لا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه أو أن ينتحر مهما كان السبب، حتى لو كان مصابًا بمرض عضال لا يأمل الشفاء منه. فعلى الرغم من النقاش الإنسانيّ الواسع

حول مسألة القتل الرحيم، نجد تعاليم الإسلام تخطّت النقاش، وأقرّت بوضوح وحسم بالمنع عن ذلك وعدم جوازه شرعًا، وكذا في حالات الأزمات النّفسيّة التي قد يعاني منها البعض نتيجة ظروف نفسيّة صعبة، أو ظروف حياتية محبطة، أو ظروف اقتصاديّة خانقة، فيبلغ حالًا من اليأس وكره العيش، فإنّ ذلك لا يُجوّز بوجه من الوجوه الانتحار.

ولا ينبع عدم جواز ذلك عن كون التّوجه في هذه الحالات سلبيًا، فيتصوّر البعض أنَّه لو كان الدافع إيجابيًا لجاز قتل النّفس، كأن يقال مثلًا إنَّ فلانًا مشتاقٌ إلى اللّه وإلى أوليائه وأحبّائه، فيقوم يوم العاشر من المحرّم، ومن شدّة شوقه لأبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، ويطلق في رأسه طلقةً من مسدّس، فحتّى لو كان الدافع نحو قتل النّفس في فهم البعض إيجابيًا، فإنّ فعلًا كهذا يبقى محرّمًا وفي صف الجرائم. وهو كما القسم السابق انتحار منهيٌّ عنه من اللّه سبحانه وتعالى، وذلك واضح في

تعاليم دين اللّه سبحانه وتعالى. وكذلك قتل النفس لأيّ سبب وبأيِّ تسويغ كان.

ومن الشواهد الأخرى في شريعتنا على كون حفظ النفس مسؤوليةً شرعيةً أنَّه لا يجوز للإنسان أن يُلحِق الأذى بنفسه. وعلى الرغم من وجود نقاش متشعب بين الفقهاء حول تعريف الأذى المحرّم وتحديد حدوده، والتمييز بينه وبين الأذى المباح أو المسموح به[1]، إلاّ أنَّ هناك قدرًا متيّقنًا هو أنَّ إلحاق الأذى الشديد بالنفس يُعتبر من المحرّمات، وهذا أمرٌ لا نقاش فيه، وخصوصًا ما يمكن أن يؤدّي إلى تلف عضو من أعضاء الإنسان، أو إلى موت الإنسان، ولو على المدى الزمني الطويل.

والشاهد الثالث من تعاليم شريعتنا هو ما يتعلّق بموضوع مرض الإنسان مثلًا، إذ ينصّ الحكم الشرعيّ بوضوح على أنَّ هناك أنواعًا من الأمراض لا يجوز للإنسان

(1) ذاك أنَّ الأذى درجات، تبدأ من شدّ اليد وهو أذًى طفيف يُتسامح به، وتصل إلى ما يؤدّي إلى فقدان عضو من الأعضاء.

أن يتساهل فيها، وهي الأمراض الّتي تُلحِق بالنفس أذًى معتبرًا وحرجًا شديدًا، أو تؤدّي إلى تلف النّفس، فيجب على الإنسان في حال تعرّض لها استشارة الطبيب المختصّ والاستماع لتشخيصه وتنفيذ تعليماته.

تصوّروا أنَّ بعض النّماذج من مدّعي الإسلام، كعناصر حركة طالبان في أفغانستان مثلًا، حكموا بعدم جواز ذهاب النساء إلى المستشفيات، مهما كانت حالتهنّ المرضيّة، وهذا ليس من دين اللّه في شيء، وليس من الشريعة السمحاء والرحمة الإلهيّة في شيء.

ومن الشواهد المتعلّقة أيضًا، توجيهات الشرع الإسلامي للمقاتلين المسلمين في الجبهات؛ إذ إنّ المقاتل في الجبهة وفي حالات الحروب والقتال معرّضٌ بشكل دائم لخطر الإصابة أو الموت، فلا يجوز مثلًا أن يندفع شخصٌ عاشقٌ للقاء اللّه، وعاشقٌ لرسول اللّه، وعاشقٌ لحفيد رسول اللّه ﷺ، ومشتاق للوصول إلى الجنة، أن يقف مثلاً فوق المتراس، أو أن يمشي وسط الشارع في

سبيل أن يقتله العدو، فإنَّ أحدًا من الفقهاء لا يذهب إلى القول بأنَّ هذا المقاتل مات شهيدًا، بل يُعدّ منتحرًا، وحكمه حكم المنتحِر، حتّى ولو كان في الجبهة. وإنَّ من أوضح فتاوى الإمام الخميني قدس سره عندما كانت ترده استفتاءات أيّام حرب السنين الثمانية حول بعض الشباب المتحمّسين الّذين يخالفون الضّوابط، والأصول القتاليّة الموضوعة – إذ للقتال ضوابط وأصول أمنيّة وعسكريّة ووقائيّة – فإنَّه كان يجيب عليها بوجوب الالتزام بتلك الضوابط، معتبرًا أنَّ من لا يلتزم ويستهتر بها، ويقتل، فليس بشهيد، وهذا بحث مختلف له تفصيله.

إذًا، فجسد الإنسان في الفهم الإسلامي أمانة أودعها اللّه سبحانه وتعالى عنده، وسلّطه على يده وعينه وأذنه وقلبه، وعلى كلّ أجزاء جسده، بل على أجزاء من هذه الأجزاء في جسده، وهو ينظر إليه كيف يصنع بهذه الأمانة، وإلى أيّ مدًى يكون أهلًا لحمل هذه المسؤولية تجاه هذا الجسد في سبيل حفظ العمر والبقاء على قيد الحياة.

اغتنام الفرصة وعدم تفويتها

أمّا المسؤوليّة الرّابعة الملقاة على عاتق ابن آدم تجاه عمره وحياته – وهي المسألة الأهمّ والمقصودة في نهاية المطاف – فهي اغتنام فرصة العمر. واستعمالنا لعبارة «اغتنام» هو التزام منّا بما ورد في المرويّات والأحاديث الشريفة[1]. وإنَّ استعمال أهل البيت لهذه الكلمة دون غيرها له دلالات خاصة ليس أقلّها كون هذه الفرصة ستفوت من أيدينا عاجلًا، وفي وقت نجهله ولا يعلمه إلّا اللّه.

يجب اغتنام فرصة العمر وخاصّة مرحلة الشباب والصّحة والعافية والقوّة الجسديّة، لأنّها تعتبر بمثابة المرحلة الذهبيّة في حياة الإنسان، والّتي توفّر له الفرصة الأفضل للعمل والعطاء، والإنسان لا يُدرِك قيمة هذه المرحلة إلا عند تقدّمه في السن، وبإمكان الفتية سؤال

(1) منها ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه واغتنام ما استطعتم عملًا به من طاعته في هذه الأيّام الخالية»، انظر، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، باب وجوب الجمعة وفضلها ومن وضعت عنه والصلاة والخطبة فيها، الحديث 1263.

الشباب عن ذلك، والشباب سؤال كبار السنّ، وكبار السنّ سؤال الشيوخ، بل إنَّه أمرٌ وجداني يدركه كلّ صاحب وجدان سليم، ولا يحتاج إلى استدلال.

قد يقول بعض الشباب – بل لعلّ هذا حال الغالبية منهم – أنّني الآن شابٌّ والوقت أمامي طويل، وسألتزم عند الكبر بصلاة الليل، إلّا أنّ الواقع سيكون مغايرًا لما توقّعه، إذ مع تقدّمه في السن يزداد الإنسان عجزًا، ولا تبقى له قوّة كافية لقيام اللّيل، وتحول مشاكله الصحيّة دون ذلك، وتضيّع عليه الفرصة. وكذا البعض ممّن يتعلق بذمته صوم قضاء عن أيام فاته صيامها، وخصوصًا النّساء المبتليات بقضاء الصوم، فيؤجّل قضاءها يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وذلك ليستمتع بحياته بعض الوقت. فمن يضمن لهذا الشخص أن تتوفّر له فرصة القضاء في وقت لاحق؟ وحتّى لو جاءت هذه الفرصة، فمن يضمن له أن تساعده صحته ووضعه وعافيته وقوّته وبدنه وظروفه في الاستفادة من هذه الفرصة ثانيةً؟

وقفةٌ مع بعض المرويّات النّافعة في هذا المقام

وفي نفس سياق الحضّ على المبادرة واغتنام الفرصة، رُوِيَ عن رسول اللّه ﷺ قوله: «**بادر بأربعٍ قبل أربع، شبابك قبل هرمك**»، فعندما يكون الإنسان شابًّا لمّا يبلغ الكبر بعد، فهناك أمورٌ كثيرة بوسعه الإتيان بها، من طاعات وعبادات وأعمال صالحات، وهو في المقابل عند الهرم والكبر عاجزٌ عنها، فاقد القدرة على الإتيان بها ولو ملك النيّة الصادقة والإرادة والعزم عليها، ولكن ذلك كلّه لا يكفي حين فقد القدرة على العمل. يكمل النبي ﷺ: «**وصحتك قبل سقمك**»، لما هو معلوم من أهميّة عامل الصّحة والعافية الجسديّة في إمكان الإقبال على العبادات والطّاعات، فالدعوة لاستغلال الصّحة قبل المرض، يكمل: «**وغناك قبل فقرك**»، فمن كان واجدًا الآن للمال فليستغلّه في فعل الخير والإحسان للآخرين، لأنَّه من غير المعلوم أن يبقى هذا المال متوافرًا لديه، وإنَّ أحدًا لا يمكنه توقّع الظروف الاقتصاديّة الّتي قد تمرّ على الناس.

فإن كان بمقدورك الآن التصدّق على الفقراء والاهتمام بالمحتاجين، وإن كان بمقدورك الآن دفع الحقوق الشرعيّة وإخراجها في مخارجها المفترضة، وإن كان بمقدورك الآن تكفّل أيتام المؤمنين، ونصرة دين اللّه وعباده المظلومين، فبادر الآن لأنّك قد تخسر ثروتك ولا يتسنّى لك لاحقًا الإحسان، ويختم النبي ﷺ: «**وحياتك قبل موتك**»[1]، لأنَّه بالموت تنتهي الفرصة، ولا يعود للعمل الصالح من سبيل.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**إنَّ الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما**»[2]، لأنّهما يأخذان من عمرك، وكلّ ما يمضي منه فإنَّه يمضي ولا يعود. فالإنسان يقترب في كلّ لحظة تمضي من أجله، ويقترب مع كلّ نفس يتنفسه من أجله[3]، فكأنَّه يسير بنفسه نحو موته الّذي لا مهرب منه،

(1) انظر، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، باب النوادر [وهو آخر أبواب الكتاب]، الحديث 5762.

(2) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، الجزء 7، الصفحة 137.

(3) وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «نَفَس المرء خطاه إلى أجله»، نهج البلاغة، باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة 74.

وكأنَّ اللّيل والنهار يقرضان منه، ويأكلان من عمره، وهذا هو معنى قوله عليه السلام **«يعملان فيك»**. وفي مقابل ذلك، يدعونا الإمام للأخذ منهما، أي التزوّد منهما لآخرتنا، وذلك بالعمل الصالح وفعل الطاعات.

ووردت في السّياق نفسه كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام يشير فيها إلى موضوع الانقضاء السريع، وهي من بين المرويّات ممّا يحتاج إلى تأمل طويل وتدبّر كثير، يقول عليه السلام: «**ما أسرع الساعات في اليوم** [أي عندما نحسب السّاعات في إطار الأيّام، فإنَّ الساعات تمرّ سريعًا بحيث إنَّ الناس لا تعدّها أصلًا بل تعدّ الأيام]، **وأسرع الأيّام في الشهر** [حيث إنَّ الأيّام أيضًا لا تُلحظ في إطار الشهور، بل نجد أنَّ الواحد منّا عندما يستذكر حدثًا مضى فإنَّه يستذكره بأنَّه وقع في الشهر الفلانيّ، ولا يذكر اليوم أصلًا] **وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر**»[1]، أي في عمر الإنسان، والّذي يجد بعد عيش

(1) نهج البلاغة، باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام، الخطبة 188.

عمر طويل أنَّ كل ساعات وأيام وشهور وسنين ذلك العمر إنّما انقضت سريعًا، وهو ما سبقأن أشرنا إليه.

والمحصّلة الأساسيّة والنهائيّة التي ينبغي علينا استفادتها ممّا ورد هي ضرورة اغتنام الدّنيا في سبيل الاستعداد للآخرة، وذلك بالسعي لعمل كلّ ما يحسّن به حالنا في الآخرة، وبالتزود منها للآخرة بكلّ ما يكفينا طوال مسيرنا وطريقنا الشاقّ، ويصل بنا إلى النهايات السّعيدة في تلك الحياة الأبديّة الخالدة، لكي تكون وجوهنا في تلك اللحظة الّتي سنقدم فيها على اللّه سبحانه وتعالى مبيّضةً مشرقةً. واغتنام العمر يكون بأن نعمل ونستفيد من كل لحظات ودقائق وساعات وأيّام وشهور وسنين هذا العمر المتاحة بالبناء للآخرة، والتزوّد لها، والإعداد والتهيئة في سبيل ما ذكرناه من نتائج.

وأذكر هنا – من باب التشويق والترغيب – حديثًا مرويًّا عن رسول اللّه ﷺ قال فيه: «**يُفتح للعبد يوم القيامة على كلّ يوم من أيام عمره أربعة وعشرون خزانة**

[قد يكون هذا الاستعمال مجازيًا مقرّبًا لفكرة ومعنى الحساب، وقد يكون استعمالًا حقيقيًّا بأنَّ ذلك هو واقع وحقيقة ما سيكون عليه الحساب] **عدد ساعات اللّيل والنهار، فخزانة يجدها مملوءةً نورًا وسرورًا فينالـه عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وُزع على أهل النّار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار**». ولكن ما هو هذا الجمال والفرح اللّذيْن يشعر بهما الإنسان، واللّذين يقلبان حال الّذين يتلظون في نار جهنّم، وهي التي لا تحرق الجلد والعظم فقط، بل وتطلع على الأفئدة، وتؤلم الأرواح وتحرقها. ما هي هذه الحال التي لو حظي بها أهل النار لغفلوا عن أليم عذابها، ولأدهشهم عن الإحساس بلظاها؟ يقول النبي ﷺ عن هذه الخزانة: «**وهي السّاعة التي أطاع فيها ربه**»، كساعة صلاة، أو صيام، أو درس، أو تدريس، أو عمارة مسجد، أو مساعدة فقير، أو زيارة بيتِ مهجّر، أو إغاثة ملهوف، أو إدخال بهجة وفرحة الى قلب مستضعف، وما شاكل ذلك من الأفعال المُرضية. «**ثم**

يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمةً منتنةً مفزعةً، فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قُسّم على أهل الجنة لنغّص عليهم نعيمها»، فما هي حال الرعب هذه التي تنتابه نتيجة هذا المشهد، والّتي لو أعطيت لأهل الجنة – ومعلوم أنَّ لذة أهل الجنة غير كل لذائذ الدنيا وهي لا توصف إلا بأنّها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر – لنغّصت عليهم نعيمها، وما هي هذه الساعة؟ يقول النبي ﷺ عنها: «**وهي الساعة التي عصى فيها ربه**»، حيث كان يغتاب ويأكل لحم إخوانه، أو يمشي بنميمة، أو يفتن، أو يكذب، أو يغشّ، أو يزني والعياذ بالله، إلى غير ذلك من الموبقات والمحرّمات. «**ثم يفتح له خزانة أخرى** [وهذا النموذج الثالث] **فيراها فارغةً ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهي الساعة الّتي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا** [كالأكل والشرب واللّعب والمزاح وتضييع الأوقات والسّهر والحديث]، **فيناله من الغبن والأسف على فواتها**

حيث كان متمكّنًا من أن يملأها حسنات ما لا يوصف، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾»[1].

إذًا، فالمسؤولية أنَّ يغتنم الإنسان منّا فرصة عمره ليعمل ليوم حسابه ولآخرته، دار بقائه وخلوده، وأن لا يضيع شبابه وعمره وماله وصحته وعافيته في ما لا ينفعه ولا يجديه، بل يجر عليه الندامة والحسرة والأسف في الدنيا والآخرة، وأن يعمر ساعاته وأيامه وشهوره وسنين عمره بطاعة اللّه وعبادته، وبالعمل الصالح وبالجهاد في سبيل اللّه عز وجل، وأن يقوم بكلّ ما يقربه من اللّه، ويجتنب كل ما يبعده عنه، وأن يلتزم وأن يطيع أوامر اللّه وينتهي عن نواهيه سبحانه وتعالى.

تنبيه وإيضاح

لا ينبغي طبعًا أن يلتبس الأمر على أحد، فيفهم من

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة 3، 1983)، الجزء 7، الصفحة 262.

كلامنا السّابق أنَّ ديننا وإسلامنا يمنعاننا عن التنعّم بطيبات الدنيا، إذ اللّه سبحانه وتعالى أنعم على الإنسان، ويحب أن يرى أثر النعمة عليه، بل إنَّ الإسلام يدعو ويحضّ في بعض الحالات على تحقيق ما يوجب التنعّم كمثل دعوته الحثيثة لكلّ قادر إلى عدم تأخير الزواج، فلا مشكلة في الإسلام في أصل التنعم بالطيّبات من طعام وشراب ومساكن لائقة، إلّا أنَّ هناك حدًّا خطيرًا ينبغي التنبّه إليه وعدم تجاوزه كي لا تختلط الأمور وتضيع المفاهيم، وهو أنَّه لا مانع من أن يأخذ الإنسان نصيبه من الدّنيا، ولكن بشرط أن لا يتعلّق بها، ولا يصبح محبًّا ملهوفًا بها، ولا عبدًا أسيرًا لها؛ لأنَّ الدّنيا خدّاعة.

فالدنيا كما أنّها دارٌ لعبادة اللّه وطاعته، فهي أيضًا وسيلة من وسائل إبليس، وحالها كما حال العلم والمال والسلاح وغيرها من الأشياء، بالإمكان جعلها وسائل لعبادة اللّه، وبالإمكان أيضًا جعلها وسائل لمعصيته. ولكنّ الخطر الكبير يكمن في أنَّ هذه الدّنيا تُقبِل على

الإنسان بألاعيب خادعة، فلا تمدّ له منذ البداية حبال الإغواء، لأنّها تجده حذرًا ويقظًا ومنتبهًا، بل تبدأ بشدّه من إصبعه، ثمّ من كفه، ثمّ من ساعده، ثمّ من كتفه، ثمّ من بطنه، ثمّ من قدمه، ثم تمسك برقبته فتسيطر عليه، فهي لا تنقضّ دفعةً واحدةً، وهذا التدرج مخيف ومرعب.

ولكن مع ذلك كلّه، نعيد التأكيد على فكرة أنَّ الإيمان والإسلام والالتزام لا يمنع أبدًا من التنعّم بنعم الحياة الدنيا، ومن استثمار طيّباتها التي أحلّها اللّه سبحانه وتعالى لعباده، على أن يشكر العبد اللّهَ على هذه النعم. ولكن هناك – كما ذكرنا – حدًّا على الإنسان أن يكون حذرًا إزاءه ويقظًا ومنتبهًا له. وإن كان لنا تشبيه حال الإنسان في هذه الدنيا بشيء، فإننا نشبهها بحال الماشي في وديان ملأى بقطّاع الطرق من جهة، وتعجّ أرضها بالألغام من جهة أخرى، وتنتشر كمائن المعتدين في سفوحها من جهة ثالثة، لا يعلم في أيّ وقت قد ينفجر فيه لغم من الألغام، ولا يأمن خطر قطّاع الطريق

وكمائن المعتدين، فالوديان هي حياته في هذه الدنيا والأخطار المذكورة هي الشياطين من الإنس والجن الّتي تحول بين الإنسان وربه، وبينه وبين آخرته.

لذا علينا أن نحيا في هذه الدنيا حذرين منتبهين يقظين، كي لا تسيطر علينا الدّنيا بأحابيلها، وتخدعنا بزينتها وزخارفها. فالإنسان إذا أنس بالدنيا ولذائذها، فإنّه قد يصل إلى مرحلة يبيع معها آخرته من أجل دنياه، ويتخلى عن دينه وإيمانه من أجل دنياه، ومن يبلغ هذا المستوى فإنّه لا يتورع عن مخالفة كلّ قيمه الإنسانيّة والأخلاقية من أجل الدنيا، فيستحيل بذلك وحشًا مفترسًا، كما لا يتورع – وهذا من أخطر العواقب – عن خذلان إمامه من أجل دنياه، بل قد يقف في وجه إمامه ويقتله من أجل دنياه، وهذه حقيقة ما حصل في كربلاء.

وقفة تأمليّة مع واقعة كربلاء

ما هو واقع مسألة حادثة كربلاء في العام 61 للهجرة؟

لقد ذكرنا هذا مرارًا، ونعيد طرحه هنا، ولا ضير من طرحه مرارًا وتكرارًا لما فيه من فائدة وعظيّة للنّفس وللمؤمنين.

لم تكن في البين مشكلة علم ومعرفة عند يزيد ولا عند عبيد اللّه بن زياد، ولا عند عمر بن سعد، ولا عند كلّ هذا الجيش الّذي احتشد وحاصر الحسين عليه السلام في أيّام محرّم وقتله يوم العاشر من هذا الشهر، وقتل أصحابه وأهل بيته وأطفاله، وسبى نساءه، وأحرق خيامه، ونهب أمواله. لم تكن مشكلتهم مشكلة جهل بالواقع، أو عدم وضوح في الرؤية، ذاك أنَّ الإمام الحسين عليه السلام، وعلى مدى أيّام طويلة قبل واقعة كربلاء، وكذا أثناء الواقعة في يوم العاشر، لم يترك فرصةً للوعظ والإرشاد إلّا واستغلّها، بنفسه أو عبر إرسال أحد إخوته أو أبناء عمومته أو أصحابه، من شباب وكبار في السنّ، كحبيب بن مظاهر وزهير بن القين ومسلم بن عوسجة، وقد كان هؤلاء من أصحاب الفضل المعروفين للنّاس بل من مشاهير العالم الإسلامي، وخصوصًا عند أهل الكوفة الّتي كانت عاصمة

العالم الإسلامي في ذلك الحين أو قبيل ذلك بقليل. لم يكن بين الناس من يجهل حبيب بن مظاهر الشيخ الكبير، ومسلم بن عوسجة وزهير بن القين.

ولقد أثار استغراب بعض رواة السيرة الحسينيّة ما كان عليه الإمام عليه السلام من موقف إرشاديّ إلى بعض الواضحات، كقوله: ألستُ ابن بنت نبيّكم؟ أليس النبّي جدي؟ أليست هذه عمامته وعباءته وثيابه؟ أوليس هذا مصحفه؟ وأنا ابن علي بن أبي طالب عليه السلام الّذي كان خليفة المسلمين، والّذي كان مقره الكوفة؟ ألست أنا ابن فاطمة الزهراء عليها السلام الّتي قال عنها رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّها سيدة نساء العالمين ومن أغضبها أغضبني؟ ألست أنا أخ الحسن عليه السلام؟ أولسنا نحن أهل البيت الّذي قال عنهم اللّه في القرآن كذا وكذا؟

فقد اعتبر هؤلاء الرواة أنَّ هذه الأمور من الواضحات، فما كان من واجب الحسين عليه السلام إعادتها على مسامعهم ليوقظهم ويستنهض هممهم، وليتمّ عليهم الحجة الإلهيّة.

فالمشكلة إذًا لم تكن مشكلة جهل بشخص الحسين عليه السلام، ولا بواقع الأمور، ولا في مسألة أنَّ الحق له أو ليزيد. بل المشكلة الحقيقية عبّر عنها شمر بن ذي الجوشن في موقفه الّذي أطلقه، حيث قال للإمام عليه السلام: «**اسكت لقد أبرمتنا من كثرة كلامك**» أي قد أزعجنا وثقل علينا كلامك. «**يا حسين لا نفقه ما تقول، انزل على حكم يزيد وابن زياد**»، وهذا كان قصارى ما هم مستعدّون لفهمه.

والموقف هذا يتكرر كلّ يوم، ونراه مرارًا في تفاصيل الحياة السياسيّة، فنحن نجد أنفسنا مضطرّين في كلّ يوم إلى الإشارة إلى أفعال أميركا وواقع السلطة الأميركية المتغطرسة، وتاريخ هذه السلطة الأسود، وكذا نجدنا مضطرّين إلى التذكير دائمًا بأفعال الكيان الإسرائيلي الغاصب الوحشيّة والدمويّة، وبمنطلقات هذا الكيان وبأهدافه. مع أنَّها أمور واضحة يعلم بها كلّ صاحب سمع وبصر، ولكنّ المشكلة في مخاطبنا، في من يبرمه هذا الكلام وتضجّ به حاله، فيقول: استسلم وصالح وتخلَّ عن

حقوقك، وتخلَّ عن نفطك وغازك، لماذا تتعبنا بنضالك؟ نحن لا نفقه ما تقول، متخليًّا عن كل عقل ومنطق وبصيرة وفهم وقيم. وللسبب نفسه قال شمر للحسين عليه السلام: «**انزل على حكم يزيد وحكم ابن زياد**».

لم تكن مشكلة هؤلاء في درايتهم كما ذكرنا، ولكن كانت مشكلتهم الإقبال على الدنيا وحبّها والخوف على مكتسباتها. كانوا جميعًا عالمين بالواقع، فلماذا خذلوا إمامهم وحفيد نبيّهم وبقية أهل الكساء في الأرضين؟ خذلوه لأنَّ أحدهم كان خائفًا على بيته من أن يهدمه ابن زياد، وآخر خائفًا على ابنه من أن يسجنه ابن زياد، وثالث خائفًا على فقد عطايا ابن زياد ويزيد التي كانت توزّع عليهم، مع أنّهم لو نصروا الإمام عليه السلام ولو وفوا ببيعتهم له لبقي أغلبهم على حياته وعزه، ولكانت لهم الدنيا والآخرة ولأطال اللّه في أعمار الكثيرين منهم، ولكانت كلفة المعركة زهيدةً جدًّا. إذًا، فالحرص على الدّنيا والخوف على ذهاب مفاتنها والطمع بما فيها، بمزيد من مالها

وطيباتها ونعيمها، هو الّذي أدّى بهم إلى ذلك، فخسروا بعدها الدنيا والآخرة كما يعرف المطّلع على السيرة.

ختام الكلام

علينا، إذًا، أن نغتنم هذا العمر في طاعة اللّه وعبادته، وفي العمل الصالح، وأن يكون بالغ إقبالنا على الدنيا في ما نحتاجه منها. أما الإسراف والتبذير والغرق في وحولها فإنّه يؤدي إلى هذه المخاطر. وقد طالعنا ذلك في التاريخ مع أعداء أهل بيت العصمة، ونطالعه الآن في زماننا المعاصر، وعلى امتداد العالم الإسلامي.

كيف يمكن لإنسان أن يبدأ حياته مجاهدًا ومضحّيًا وزاهـدًا، لا يهتمّ لشيء من حطام هذه الدنيا ولا أكلها ولا شربها، يقنع بما يُعطى من قليل الطعام والملبس، ويتحوّل مع مرور الزمن إلى محبٍّ للأكل والنوم والزعامة والعيشة الآمنة، ثمّ يطالب لاحقًا أن لا يذكر اسمه إلّا مع قدرٍ وافرٍ من التبجيل والتعظيم عند التعريف به، ويرى أنَّ

له حقًّا عليك، وعلى اللّه، وعلى الإسلام، وعلى الدّين، وعلى النّبي ﷺ، وعلى أهل البيت عليهم السلام لأنَّه جاهد وضحى وقدّم؟ وهناك نماذج معاصرة لما أذكره. ولكن كيف يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه الحال؟ هل بلغها دفعةً واحدة؟ كلا، بل وصل بالتدريج إليها نتيجة ارتفاع حالة الحذر من الدّنيا وزخارفها. فعلينا لذلك أن نغتنم هذا العمر وأن نعرف أنّنا سنُسأل عنه يوم القيامة.

وأختم الكلام في هذا الفصل بالحديث الشريف الوارد عن رسول اللّه ﷺ أنَّه قال: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت**»[1].

على أن يُرجأ الكلام في الشقّ الثاني المتعلّق بموضوع طلب العمر وتطويل العمر وطلب الشهادة وحبّ الموت إلى الفصل الثاني، سائلًا اللّه سبحانه وتعالى أن يعرّفنا

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، الجزء 7، الصفحة 258.

الحقّ، وأن يوقظنا من غفلتنا ومن نومنا، وأن يوفقنا لطاعته وعبادته واغتنام هذا العمر المبارك الّذي منحنا إيّاه، وأن يختم لنا بخير، وأن يرزقنا عافية وسعادة وعزة وكرامة الدنيا والآخرة، بمحمّد وآله الأطيبين الأطهرين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

الفصل الثّاني

النظرة إلى الموت والاستعداد له

تمهيد

بعد أن أتممنا في الفصل الأوّل الحديث حول مفهوم العمر في الأدبيّات الإسلاميّة، وأردفنا ذلك بذكر المسؤوليّة المترتّبة على كلّ مؤمن تجاه العمر الّذي وهبه اللّه سبحانه إيّاه، فإنّنا نستكمل في هذا الفصل بحثنا في شقَّيْن: نقف في الشقّ الأوّل على مسألة إطالة العمر، أي هل ينبغي أن يطلب الإنسان من اللّه أن يطيل في عمره؟ وهل من المبرّر للإنسان أن يحب إطالة عمره؟ ثمّ ننتقل بعد ذلك إلى الشقّ الثّاني الّذي يرتبط بموضوع الموت، ومنه نتطرّق إلى موضوع الشّهادة.

طلب إطالة العمر في القرآن والدّعاء

قبل الخوض في التفصيل المذكور، نشير إلى ملاحظة

تأسيسيّة، هي أنَّ الأدعية – سواء منها الواردة على لسان أهل البيت عليهم السلام أو الواردة في القرآن الكريم نقلًا عن أحد الأنبياء مثلًا – هي مضافة إلى كونها بمثابة كلام – بين العبد وربّه – معبّرٍ عن الدعاء والطلب والتوسل، وغيرها من المعاني التي يجب على الإنسان الاقتداء بها. فهي في الوقت نفسه بمثابة توجيه وارد من اللّه سبحانه وتعالى، أو من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أو من أحد أئمة أهل بيت رسول اللّه عليهم السلام، وتحتوي على الكثير من المفاهيم والأفكار والقيم التي ينبغي التزامها والإيمان بها.

وعمومًا، إنَّ الباحث يجد، بالعودة إلى الأدعية، أنَّ الدعاء بطول العمر ورد في كثير من الأدعية وفي مناسبات عدّة، بل الوجدان يقرّ أنَّ الإنسان بطبيعته وبدافع غريزته يسكنه حبّ البقاء والخلود. ولمّا لم يكن الخلود في هذه الدنيا ممكنًا، فهو يتمنّى البقاء أطول مدّة ممكنة يأذن بها اللّه تعالى، فهذا أمرٌ محبوبٌ ومطلوبٌ له، بل هو يطلبه لنفسه ولمن يحب، فيدعو بطول العمر لأبوَيْه

ولأحبّائه وأصدقائه، ولكلّ من تربطه به صلة من أرحام وأبناء وأصدقاء.

وكما ذكرنا، فإنّ طلب إطالة العمر واردٌ في الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام. فقد ورد في بعض الأدعية مثلًا[1]: «**اللَّهُمَّ وَاجْعَلْ فيمَا تَقْضِي وَتُقَدِّر أَنْ تمدَّ في عمري وأن تُوَسِّعَ عليَّ في رِزْقِي وأن تُبَارِكَ لي في كسبي وأن تُبَارِكَ لي في ديني ودُنياي وآخرتي وأن تَفُكَّ رقبتي من النّار**». وعبارة «تمد» في الشاهد السابق واضحة الدلالة.

وورد في دعاء آخر[2]: «**اللَّهُمَّ أَوْسِعْ عَلَيَّ في رِزْقِي، وَامْدُدْ لي في عُمْرِي، وَاغْفِرْ لي ذَنْبِي، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِكَ، وَلَا تَسْتَبْدِلْ بي غَيْرِي**».

(1) وهو من الأدعية الوارد استحباب قراءتها في اللّيلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان المبارك.

(2) والدعاء وارد في: الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء 7، أبواب الدعاء، الباب 60: أنّه يكره أن يقال في الدعاء: اللّهمَّ اجعلني ممن تنتصر لدينك، إلا أن يقيّده بما يزيل الاحتمال، الحديث 2.

وورد في دعاءٍ للإمام زين العابدين[1] عليه السلام: «**وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ أَطَلْتَ عُمْرَه وحَسَّنْتَ عَمَلَه وَأَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نِعْمَتَك وَرَضِيتَ عَنْه وَأَحْيَيْتَه حَيَاةً طَيِّبَة**».

وبإمكاننا القول إنَّ الأدبيّات الخاصّة بالدعاء تعجّ بعبارات من قبيل «تمدّ»، «تفسح»، «تطيل»، «تزيد وتبارك»، في عمري أو أعمارنا.

واللّافت هنا، المناسبات الّتي وردت فيها هذه الأدعية، فهي مناسبات عديدة ومُهمّة، كدعاء يوم عرفة، ودعاء شهر رمضان، والدّعاء المستحبّ عند رؤية الهلال، ودعاء استقبال شهر رمضان، وأدعية السّحر في شهر رمضان، وأدعية اللّيالي العشر الأواخر منه، وأدعية ليالي القدر، واللّيلة الثالثة والعشرين الّتي يغلب احتمال كونها هي ليلة القدر، بل وترد هذه المطالب في أدعية مرويّة على مدار السنة، في أدعية الصّباح والمساء، وتعقيب صلاة الصّبح، والدّعاء عند غروب الشمس، بل نجد

(1) وهو الدعاء المشهور بدعاء أبي حمزة الثمالي الوارد في كتب الأدعية.

هذه المطالب واردةً في أوقات قبول الدعاء وفتح أبواب السماء، ويعدّ هذا من الأمور اللّافتة أيضًا. نوع الإطالة المطلوبة في أدعية المعصومين عليهم السلام.

الأمر المطلوب فهمه بخصوص الأدعية السّابقة، وما على شاكلتها، أن نعرف ما الّذي يطلبه المعصوم عليه السلام، ولماذا يطلبه وماذا يطلب بعده. ومُفاد الإجابات على الأسئلة السابقة أنَّ الإنسان يطلب من اللّه سبحانه وتعالى المزيد من العمر بغية أن تكون الفرصة المتاحة له أطول، أي يطلب المزيد من الوقت، والمزيد من العمر للاستفادة أكثر من هذه الفرصة في العمل للآخرة، وذلك بتقديم المزيد من الطاعة والعبادة وتحقيق غفران المزيد من الذنوب، بحيث يعمل أكثر ليمحو ذنوبًا وسيّئات، إذ ما يكسبه الإنسان من الحسنات وما يجاهده في سبيل اللّه سبحانه وتعالى، وما ينتصر به لدين اللّه ولعباده عزّ وجل، هو كلّه كفارة للذنوب.

إذًا، فالفسحة التي نطلبها من اللّه لا يجب أن نطلبها

بهدف البقاء في الدّنيا للأكل والنوم، لأنَّ عمرًا كهذا مهما طلبناه – سنةً أو سنتين أو ثلاثًا أو عشرةً أو عشرين – يمرّ كالّذي مضى قبله بسرعة، ولا يكون ذا قيمةٍ وأهميّة. أمّا العمر الّذي قد نطلبه ويكون ذا أهميّة فهو ما ذكرنا أنَّ المعصومين يطلبونه، وهو العمر المحفوف بطاعة اللّه، الّذي يزداد كلّما طال قيمةً وشأنًا، بزيادة الطاعات والأعمال الصالحة.

نعم، لو كان الإنسان يطلب المزيد من العمر لارتكاب المزيد من المعاصي والآثام، فهذا هو الطلب المذموم والدعاء المرفوض عند العقلاء، لأنَّه بطلبه إنّما يطلب أن تزداد المعاصي المثبتة في سجلّه، ولأنّ ذلك إنّما يعني وجود حالة من الجحود والعناد والإصرار على المعصية، وهذا المعنى واردٌ أيضًا في الأدعية، وكذا في بعض الروايات.

فقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق[1] قوله: «**وَعَمِّرْنِي** [أي زد في عمري]

(1) وارد في الصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام، الدعاء رقم 20.

مَا كَانَ عُمْرِي بِذلَةً في طَاعَتِك فَإِذَا كَانَ عُمْرِي مَرْتعًا لِلشَّيْطان فَاقْبِضْنِي إليك». والنّص يوضح أنَّه لا يكون طلب العمر مطلقًا أبدًا، كما لا يكون طلب الموت مطلقًا، وهذه هي بالتحديد الفكرة الّتي نبتغي إيصالها. فإذا كان العمر المطلوب سيحوّل حياتي مرتعًا للشيطان ويكون زمانًا تزداد فيه المعاصي والذنوب والخطايا، فهذا فيه خسران الدّنيا والآخرة، وكيف يصح طلب ما فيه الخسران من اللّه سبحانه؟ ولكن أن نطلب من اللّه سبحانه وتعالى أن يطيل أعمارنا لنعمُرها بطاعته سبحانه وتعالى، فهذا هو المطلوب والمستحبّ، فالمعيار هو تحقيق مرضاة اللّه. والتفصيل نفسه وارد في ما يقابله من موضوع طلب الموت، وسيأتي بيانه في الشقّ الثاني.

وورد في المروي عن أهل بيت العصمة عليهم السلام في بعض الأدعية القول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَجْمَعِين، أَنْ تُحيِيَنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لي، وَأَنْ تَتَوَفَّانِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاة خَيْرًا**

لي»[1]. فالطلب هنا مرتبط أوّلاً بعلم اللّهِ بالغيب، وأنَّ الحياة ستكون خيرًا أو الموت هو الّذي سيكون خيرًا، وثانيًا بقدرة اللّه على الخلق وإطالة الأعمار. ولو ربطنا مضامين هذه المناجاة بما سبق، لوجدنا أنَّ الميزان والمعيار في الدعاء بإطالة العمر هو أن يطلب الإنسان لنفسه الخير والسّعادة والعافية والعاقبة الحسنة والرضوان والرّحمة، وهذا هو العمر الطويل الّذي يجب أن يجدّ الإنسان في طلبه من اللّه، فيطلب المزيد إن كان المزيد من العمر خيرًا له ويطلب الوفاة واللّحاق بعالم الآخرة إن كانت الوفاة خيرًا له، وهذا علمه عند اللّه سبحانه وتعالى.

وقد ورد أنَّ النّبي ﷺ كان ينهى بعض بني قومه مِمَّن يتمنّون الموت نتيجة بلاء يحل بهم موجّهًا إيّاهم إلى أن يقولوا: «**ربّنا عمّرنا ما كانت الحياة خيرًا لنا، وتوفّنا إن كانت الوفاة خيرًا لنا**». معنى ذلك أن ندع الأمور مفتوحةً بين يديّ اللّه سبحانه وتعالى، وأنَّ على الإنسان أن يطلب

(1) والدعاء وارد في: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، الجزء 95، الصفحة 360.

من اللّه سبحانه وتعالى طول العمر، ولكن مقرونٌ بطلب التوفيق للتقوى والطاعة والعبادة والورع والجهاد لكي ينتصر به اللّه لدينه.

تقديمٌ في مسألة الموت

هنا ندخل إلى الشقّ الثّاني من حديثنا وهو موضوع الموت والشهادة. كما تناولنا في الفصل الأوّل مسألة فهم الإسلام للعمر ومسؤوليّة الإنسان نحوه، نتناول هنا الفهم والرّؤية الّتي يقدّمها الإسلام في موضوع الموت، وهي مسألة أساسيّة تعني كلّ نفس إنسانيّة، ومسؤوليّتنا تجاه هذا الموضوع.

وقبل الخوض في المطلب، نبدأ بمقدّمة ضروريّة بين يدي بحثنا، وهي أنَّ الحديث عن الخروج (والانتقال من حياة إلى أخرى) له ثلاثة معانٍ، فهناك ثلاث حالات خروج واردٌ ذكرها في النصوص وكلّها مراحل مفصليّة.

أمّا الخروج الأوّل، فهو يوم ولادة الإنسان وخروجه من

بطن أمه، يرى الدّنيا، وما يذكر من أنَّه يخرج من ظلمة الرّحم ومن ضيقه إلى هذه الدّنيا، ويقال إنَّ بكاء الطفل عند ولادته وخروجه إلى الدّنيا سببه انبهاره بالضّوء والضجيج، وبالأصوات من حوله، لأنَّه انتقل إلى عالمٍ جديدٍ تمامًا.

وأمّا الخروج الثاني فهو خروج الإنسان من الدنيا بخروج روحه من بدنه، ليعاين الآخرة وأهلها، إذ الإنسان – كما أشرنا في الفصل السابق – يرى في لحظات النزع الأخيرة، وبحسب المذكور في الروايات، ما في تلك العوالم لأنّه ينكشف عن بصره.

والخروج الثالث هو خروج الإنسان يوم البعث من قبره للعرض والحساب. يقول اللّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾[1]، وهو النّداء الّذي يسبق القيامة الكبرى، ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ

(1) سورة ق، الآية 41.

سِرَاعًا﴾[1]. فالله سبحانه يعيد تركيب الأجساد المدفونة في القبور، ثمّ يعيد نفخ الأرواح في الأجساد المركّبة، ثمّ تتشقّق القبور ويخرج الناس من قبورهم ومراقدهم، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[2]، فحشر الناس جميعًا بل والمخلوقات جميعًا هو أمر على اللّه يسير. ويقول سبحانه في مورد آخر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[3]، والأجداث تعني القبور، وخروجهم كما تذكر الآية يكون نتيجة النفخ في الصور فيخرجون من قبورهم، ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[4]، بعد هذا الرقاد الطويل في قبورنا وأجداثنا من الّذي بعثنا؟، فيأتي الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[5]، لأنَّ بعض هؤلاء المبعوثين من الأجداث لم يكن في حياته الدنيويّة يؤمن

(1) سورة ق، الآيات 42 إلى 44.
(2) سورة ق، الآية 44.
(3) سورة يس، الآية 51.
(4) سورة يس، الآية 52.
(5) الآية نفسها.

بصدق المرسلين وبوعد البعث في الآخرة.

هذه حالات الخروج الثلاثة للإنسان، كلّها لا يستثنى منها أحد، لا نبي ولا ولي، ولا مؤمن ولا كافر، ولا غنيّ ولا فقير، ولا رجل ولا امرأة، ولا صغير ولا كبير، ولا ملك ولا إنس ولا جنّ.

مفهوم الموت في الإسلام

ذكرنا سابقًا أنَّ الموت أمرٌ لا بدّ منه، ولا مفرّ ولا عاصم منه، هو طالبٌ حثيثٌ لا يهدأ وقد علم الجميع أنَّ اللّه سخّر للموت ملكًا بل ملائكةً، لا عمل لهم سوى طلب الأنفس في آجالها الّتي كتبها اللّه لها. وذكرنا أيضًا أنَّ الموت يأتي بغتةً وفجأةً، وأنَّه بيدِ اللّه سبحانه ومشيئته، ولا يمكن لأحدٍ أن يعرف زمان ولا مكان ولا كيفيّة موته، ولكنّ المتيقّن أنَّه آتٍ لا محال. ولكن ما هو هذا الموت الّذي له كل هذه السمات؟ ما هي حقيقته؟

تسود في بعض الأفهام فكرة أنَّ الموت هو محطة

الإنسان الأخيرة، ونقطة نهاية الرحلة بالنسبة إليه، حيث يصل إلى مرحلة الزوال والفناء من الوجود، وذلك بعد أن يبلى جسده، لينتهي عندها كل معنًى للحياة ويكون الوصول إلى مرحلة ليس بعدها شيء. وليس كذلك الحال في الفهم الإسلامي لمسألة الموت، حيث يُعدّ هذا الفهم مرفوضًا في تعاليم الدين الإسلامي، بل وفي تعاليم كلّ رسالات السماء وكلّ الأنبياء السابقين، وتُعدّ عقيدة الحياة بعد الموت من الثوابت عند أصحاب هذه الديانات، وهي ما يُسمّى عندهم بالإيمان باليوم الآخر، أو الإيمان بما بعد الموت. وكذا يعتبر الإيمان بالحساب والثواب والعقاب والجنّة والنّار من الثوابت والمسلّمات العقائديّة في هذه الأديان.

فإن لم يكن الموت فناءً، فماذا يكون إذًا؟ هو ببساطة انتقال من دار إلى دار، من عالمنا عالم الدّنيا إلى عالم آخر. فليس بالتالي أمرًا عدميًّا بأن يفنى الإنسان وينعدم وينتهي، والعالم الآخر هذا فيه مراحل عدّة، ولكلّ مرحلة

ظروفها وأحوالها الخاصّة. فمرحلة القبر لها أحوال وشؤون خاصة، ومرحلة ما قبل قيام السّاعة – الّتي تعتبر مرحلة القبر جزءًا منها – وهي ما يُسمّى بعالم البرزخ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]. فهذه المرحلة لها أحوالها وأوضاعها الخاصّة أيضًا، وهي مذكورة في الروايات والأحاديث، وقد وقعت بين علماء الكلام المسلمين نقاشات عديدة حولها، ثمّ مرحلة القيامة الكبرى، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[2]، عند حشر النّاس جميعًا في صحراء المحشر بين يدي اللّه سبحانه وتعالى، حيث تُنشر الكتب ويوضع الميزان ويقع الحساب والعقاب، ثمّ بعدها مرحلة الجنّة أو النّار، ولكلّ مرحلة شؤونها الخاصّة كما ذكرنا؛ فالموت هو بوابة الدخول وقنطرة العبور إلى هذه العوالم كلّها، هو هذا الانتقال إلى تلك العوالم.

(1) سورة المؤمنون، الآية 100.

(2) سورة ق، الآية 44.

نعم، لمّا كانت الروح بالموت تخرج من الجسد، فإنّ الجسد بالموت يبلى ويفنى ويتفتّت، ويأكله الدود ويمحى أثره في التراب. وأمّا الروح فهي الّتي تبقى موجودةً، وتنتقل إلى العالم الآخر بكافة مراحله، بمعزل عن تفصيل القول في أحوالها وأوضاعها في البرزخ، ولاحقًا القيامة؛ لأنَّ ذلك خارج عن سياق بحثنا. فالمطلوب معرفته هنا أنَّ الروح هي الّتي تبقى، وهي الّتي تتنعّم أو تتعذّب بالأصالة، وأما الجسد الّذي يعاد بعثه فهو وسيلة لها.

أصناف النّاس في فهم الموت

إذًا، الموت بحسب الفهم الإسلامي هو بوابة الانتقال من هذا العالم إلى عالم آخر، إلّا أنّ الناس لا يجمعون على فهمٍ واحدٍ للموضوع. ولو أردنا تصنيفهم بناءً على فهمهم لموضوع الموت، وعلى معرفتهم وأفكارهم وفق هذا الصعيد، وعلى أعمالهم المترتبة على فهمهم، فإنّهم عدّة أصناف. سنسعى في الآتي إلى ذكر هذه الأصناف، ونحدد من أيّ صنف ينبغي أن نكون، على أن نورد بعض

الروايات المتعلّقة ببعض الأصناف، والتي تشرح الحقيقة التي ذكرتها قبل قليل، على أنَّ الأصناف التي سنذكرها ليست على سبيل الحصر، إذ قد يكون هناك أصنافٌ أخرى.

في العموم، يشترك جميع النّاس بكرههم الموت ومهابتهم وخوفهم منه، كما في توقّيه والهرب منه، وهذا أمرٌ غريزي وطبيعي وفطري لديهم، إلّا أنَّ له صلةً بطبيعة فهمهم لموضوع الموت.

المنكرون للحياة بعد الموت

الصنف الأوّل هم فئة المنكرين لوجود حياة بعد الموت، والّذين يؤمنون بأنَّ الموت معناه النهاية ومؤدّاه الفناء، فيخافونه لذلك، ويتمسّك الواحد منهم بالدّنيا، بكل لحظاتها ودقائقها وساعاتها، فيتسبّب عناده وكفره باليوم الآخر بالخوف من الموت وبكرهه له.

أمّا الصنف الثّاني، فهم فئة لا ينكرون وجود حياةٍ بعد

الموت، أو لا يقرّون بأنّ الموت فناء، ولكنّهم لا يقرّون أيضًا بوجود حياةٍ بعد الموت، بل يقرّون فقط بحيرتهم وجهلهم وعدم درايتهم لواقع المسألة، فهل هناك آخرة أو لا؟ وهل هناك حياةٌ بعد الموت أو لا؟ وهل هناك حسابٌ وثواب وعقاب أو لا؟ فجوابهم لا أدري.

وإنَّ من الطبيعي لمن كان فاقدًا للرّؤية الواضحة بخصوص مسألة أن يخاف منها، كالداخل في نفقٍ مظلم مجهول له لا يعرف هل أرضه معبّدة أو تتخللها حُفر، ولا يدري أطريقه مستقيمة أو منحرفة، ولا يعلم إن كانت ستصادفه فيه وحوش أو أفاعٍ أو أنَّه سينقطع فيه الأوكسيجين. فمن الطبيعي أن يدخله قلق وخوف، ليس لإنكاره وجود النفق، بل لكونه تائهًا عن تفاصيله.

المقرّون بالحياة بعد الموت

هم الصنف الثالث من الناس، وهم الّذين يؤمنون بالله وأنبيائه وكتبه واليوم الآخر، ويؤمنون بأنَّ بعد الموت

حياةً، وبعثًا، ونشرًا، وحشرًا، وحسابًا، وعقابًا، وثوابًا، وجنةً ونارًا، ولكنّهم لكونهم مقبلين على الدّنيا، غارقين في بحار ملذاتها فإنّهم يُعتبرون من أهل المعاصي والذنوب الذين لم يقدموا شيئًا لآخرتهم.

وهـؤلاء من الطبيعي أيضًا أن يكرهوا الموت لأنَّه سينقلهم إلى عالم لم يهيّئوا له شيئًا، ولم يتزوّدوا له، ولم يجهزوا له، ولم يعدّوا له شيئًا، وسيغادرون عالمًا أمضوا في السعي فيه شبابهم وصحتهم وعافيتهم وعمرهم، في جمع المال وبناء الدور وفي متعه وشهواته. فمن الطبيعي أن يكرهوا مغادرته والذهاب إلى عالم لم يعدوا له شيئًا ولم يجهّزوا له شيئًا.

وسُئل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «**ما بالنا نكره الموت ولا نحبّه؟**» فأجاب: «**لأَنَّكُم أَخْرَبْتُم آخِرَتَكُم وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَكْرَهُوَن النُّقْلَةَ مِنَ العمرانِ إلى الخَرَابِ**»[1].

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، 1379هـ)، باب معنى العروة الوثقى، الصفحة 390.

فلا يمكن لمن يملك بيتًا وحديقةً، تُعلمه بأنّه سينتقل إلى بيت خَرِبٍ بلا سقف ولا ماء ولا كهرباء أن يحب الانتقال، وكره هؤلاء كما أشرنا ليس لكونهم ينكرون مسألة البعث بعد الموت، بل هم يؤمنون ولكنّهم لم يعملوا ولم يستعدّوا ولم يتعبّؤوا لهذا الأمر، وهذا الصنف منتشر بيننا وبكثرة.

وأما الصنف الرابع فهم الذين يؤمنون بالحياة ما بعد الموت وبكل ما مرّ ذكره من تفاصيل تقع فيها، مع كونهم يعملون الصالحات، ولكنّهم خلطوا عملًا صالحًا مع آخر سيّئٍ، فسجلّاتهم فيها الحسنات كما السيّئات، فيها فعل الطاعات كما ارتكاب المعاصي، فيها ما يقرّب إلى اللّه من أعمال وما يبعد عنه سبحانه وتعالى. ولأنهم خلطوا عملًا صالحًا بآخر سيّئ فهم بخصوص وضعهم في ذلك العالم قلقون، وقلقهم ليس ناتجًا عن فقدان البصيرة كما حال الصنف الثاني، ولا سببه الحيرة والجهل، بل هم أهل إيمان وعلم ومعرفة وبصيرة، يعرفون أنَّ بعد الموت

حشرٌ وحساب، ويعرفون ما أعدّ اللّه للمؤمنين والمتّقين والصالحين من النعيم وما أعدّ للعاصين من العذاب.

إذًا، فمشكلة هؤلاء هي التقصير في العمل لا الجهل بحقيقة الأمر، وقلقهم مصدره انشغالهم بسؤال أنفسهم أننا لو متنا وانتقلنا إلى تلك الدار على هذه الحال – خلط العمل الحسن بالسيّئ – فكيف سيحاسبنا اللّه عزّ وجل؟ فهل سيمحو سيّئاتنا ويغفر لنا ويسامحنا، ويعفو عنّا، ويزيد من حسناتنا ويضاعفها، ويتجاوز عنّا ويقبل شفاعة نبيه وأوليائه بنا؟ أم أنّه سيحاسبنا على سيئاتنا ويعذبنا بقبيح فعالنا؟ وهذا ما نسميه عادةً بالتأرجح بين الخوف والرجاء، رجاء أن ننجو بإيماننا وعملنا الصالح، وبما قدّمنا من جهاد في الدنيا مشفوعًا بشفاعة رسول اللّه وأهل بيته الأطهار صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، وبرحمة اللّه الواسعة الّتي تشرئبّ لها الأعناق يوم القيامة، وخوفٌ من أن لا يغفر لنا خطايانا وأن تأكل سيّئاتنا كلّ حسناتنا، وأن لا تشملنا الشفاعة ولا الرّحمة.

وحالُ هذه الفئة حالٌ لا نتمنى أن تكون هي حالنا، ولو كنّا من أهل هذه الفئة فإنّنا، حتّى على فرض كوننا مؤمنين ومن أهل الجهاد والعبادة، سنتمنى أن يدفع اللّه الموت عنّا، ويطيل في أعمارنا ويؤجّل ميعاد موتنا ويعطينا فرصةً، بل كنّا سنبذل كلّ ما في وسعنا لتأجيل الموت.

أهل المعرفة والإيمان

وأمّا الصنف الخامس، وهو آخر ما سنتناوله من الأصناف، فهم الذين آمنوا وعرفوا وتبصّروا، هم أهل المعرفة والإيمان والبصيرة، يقينهم بما بعد الموت قاطع، ومزجوا هذا اليقين بالعمل والطّاعة والجهاد واجتناب المعاصي والتهيئة للدار الآخرة. بعضهم من العظماء درجةً كالأنبياء والأئمّة والمعصومين سلام اللّه عليهم، والبعضُ الآخر عبادُ اللّه الصّالحين والمجاهدين والشهداء الّذين عملوا في هذه الدّنيا وتابوا إلى اللّه وأصلحوا، وأدّوا ما عليهم من حقوق ربهم، والخلق وأمضوا بقية

حياتهم طائعين عابدين مجتنبين المعاصي، مجاهدين في سبيل اللّه، ناصحين لعباد اللّه سبحانه وتعالى، إلى أن بلغوا حدًّا أصبحوا فيه كمن بيده شرط وثيق، أي نوع من الضمانة، فإنَّه وإن كان الأمن من مكر اللّه محرّمًا ولكن معنى ذلك أنّ نفوسهم أصبحت مضمونةً وبنسبة عالية في السعداء. وإلى ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «**وَأَكْثِرْ ذِكْرَ المَوْتِ وَمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَلَا تَتَمَنَّ المَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ**»[1]، أي إلاّ أن تكون مطمئنًّا لما سيكون عليه حالك بعد الموت، وذلك كمثل حال الشهداء وأولياء اللّه الصالحين وكبار العرفاء، وكمثل من كان مصداقًا للآية الكريمة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[2].

(1) نهج البلاغة، باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عمّاله ووصاياه لأهله وأصحابه، الكتاب 69.

(2) سورة النساء، الآية 69.

كلامٌ في مصاديق الصنف الخامس

لو أردنا الوقوف على بعض مصاديق هذا الصنف، فإنَّ خير مصاديقه النماذج المشهودة في اليوم العاشر من محرّم، حين وقفت جيوش بني أميّة بأعدادها الضّخمة أمام الجمع الصغير للإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته، سواءٌ كان تعداد جنود جيش يزيد أربعة آلاف أو اثني عشر ألفًا، أو ثلاثين ألفًا على اختلاف الروايات، فإنّ ذلك لن يغيّر في الواقع شيئًا، لأنَّ الفارق الكبير سيبقى قائمًا على كلّ الاحتمالات، وستبقى المعركة قائمةً بين جيش ضخم وقلّة قليلة. هذه القلّة هي شاهدنا ونموذجنا الّذي نعتبره وبحقّ من خيرة مصاديق الصنف الخامس. يروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام الذي كان حاضرًا يوم العاشر من محرم في كربلاء قوله: «**وَكَانَ الحُسَيْنُ** عليه السلام **وَبَعْضُ مَنْ مَعَه مِنْ خَصَائِصِه تُشْرِقُ أَلْوَانُهم**». وشاهدنا من قوله أنَّ هذا الصنف نتيجة علاقته مع اللّه وقربه منه وطاعته وعبادته له وجهاده في سبيله تغمره الطمأنينة والسكينة

وهدوء النفس، فيصبح الموت بالنسبة إليه ساعة اللّقاء مع الحبيب، فهؤلاء على درجات لا يكرهون الموت ولا يهابونه ولا يهربون منه، بل قد تترقّى درجتهم إلى مرحلةٍ يحبونه ويعشقونه ويتمنونه، وينتظرونه ويقبلون عليه، وإذا أقبلوا عليه يعانقونه، وهذا حال أهل الصنف الخامس.

وكمثل هؤلاء حال الشهداء، والكلام عنهم ليس محصورًا بالتنظير المفهومي، بل هي مصاديق يشهدها واقعنا البشري، وليس وجودهم محصورًا بزمن الأنبياء والأئمة عليهم السلام، بل هم موجودون في كلّ زمان، وخير شاهد في زماننا هذا شبابنا في المقاومة الإسلامية، الّذين نعايشهم ونرى فعالهم. ولو أردنا تعداد شهدائنا الّذين قضوا في هذه المسيرة لطال بنا المطاف، وقد كان كثيرٌ من هؤلاء الشهداء ممن عايشنا وعرفنا على هذه الحال، ومن هذا الصنف، لا يكرهون الموت ولا يهابونه، بل يحبّون الموت ويُقبلون عليه، ويأنسون به ويتمنونه، لما ارتكز في فهمهم من حقيقة الموت.

وبالعودة إلى الكلام عن الحسين عليه السلام، نستعيد قول إمامنا السجاد: «**وَكَانَ الحُسَيْنُ عليه السلام وَبَعْضُ مَنْ مَعَه مِنْ خَصَائِصِه تُشْرِقُ أَلْوَانُهم**»، علمًا أنَّ الطبيعة البشريّة تقضي أنَّ الإنسان عند مواجهة المصاعب والحوادث القاسية أو عند احتمال الموت يغتمّ ويسودّ لونه. أمّا الإمام عليه السلام وبعض أصحابه فكانت وجوههم تشعّ نورًا. يُكمل السجاد عليه السلام: «**تُشْرِقُ أَلْوَانُهُم وَتَهْدَأُ جَوَارِحُهُم وَتَسْكُنُ نُفُوسُهُم**»، أي يشعرون بالسكينة والهدوء والطمأنينة. فقال بعضهم لبعض: «**انظروا لا يبالي بالموت**»، أي انظروا إلى الحسين عليه السلام لا يبالي بالموت ولا يهابه، فسمعهم الحسين عليه السلام فقال لهم: «**صَبْراً بَنِي الْكِرَامِ! فَمَا الْمَوتُ اِلاَّ قَنْطَرَةٌ تَعْبُر بِكُمْ عَنِ الْبُؤسِ وَالضَّرّاءِ إِلَى الْجِنَانِ الْوَاسِعَةِ وَ النَّعِيمِ الدَّائِمَةِ. فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَن يَنْتَقِلَ مِنْ سِجْنٍ إلى قَصْرٍ؟**»[1].

(1) الحديث بجملته وارد في: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، الجزء 44، الصفحة 297.

فمن كان يقف على ضفّة نهر ينتشر حوله البؤس والشقاء والضرّاء، ويزيد وعبيد اللّه بن زياد، ووحشيّة شمر بن ذي الجوشن، وخذلان الناصر وغير ذلك من الابتلاءات. ويعلم أنَّ على ضفة النهر الأخرى الجنان الدائمة والنعيم الباقية ورضوان اللّه وأولياءه وأنبياءه وأحبّاءه وروحًا وريحان، وبينهما جسرٌ صغير يصل العابر عليه من الجهة الأولى إلى الجهة الثانية، فليت شعري كيف سيعبر من يفهم هذا الفهم على هذا الجسر؟ هل سيعبره حزينًا منفعلًا مضطربًا، أو سيعبره بنفس هادئة وادعة سعيدة ساكنة؟ الإمام الحسين عليه السلام، وفي قلب تلك المعركة في اليوم العاشر، يوضح لأصحابه سبب اطمئنانه وسبب الإشراق والبِشر الملحوظ في وجهه، وسبب السكينة العامرة قلبه، وذاك لأنَّ الموت الّذي يقبل عليه ليس في فهمه فناءٌ بل قنطرةٌ تعبر به وبأصحابه من البأساء والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيّ العقلاء يكره أن ينتقل من الشقاء إلى النعيم؟

ومن الشواهد أيضًا على فهم هذه الفئة لموضوع الموت ما نسمعه في المجالس العاشورائية عن أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرّم، حيث كانت تلك بالنسبة إليهم ليلةً طبيعيّةً، بل كان الجو السائد فيها جو استبشار بما هم مقبلون عليه، في حين يفترض بمن يعلم أنَّه سيلاقي حتفه صباح ليلته أن يمضيها بقلق وكدر، وذكر أنَّ أحدهم مازح آخرًا فقال له صاحبه أنّ الوقت ليس وقت مزاح، بل ينبغي الاستفادة منه بقراءة آيةٍ أو ذكر لأنَّ الوقت ضيّق، فما كان من الأوّل إلا أن أجابه ولماذا لا نمزح؟ وما هي إلا ساعات ونقبل على جنان اللّه.

الفهم الصحيح للموت بما روي عن أهل البيت عليهم السلام

إذًا، الموت بالنسبة إلى أهل الفئة الخامسة ما هو إلا هذا الانتقال من دار الابتلاء إلى دار النعيم، وقد ورد في المروي عن أهل بيت العصمة عليهم السلام كلامٌ كثيرٌ في حقيقة الموت نورد هنا بعضًا منه.

فعن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنَّه قال في جواب سائل سأله عن الموت: «**لِلْمُؤْمِنِ كَنَزْعِ ثِيَابٍ وسخةٍ قملةٍ، وفكِّ قيودٍ وأغلالٍ ثقيلةٍ، والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح، وأوطأ المراكب، وآنس المنازل**»، فإن كان هذا حال الموت يبدل ثياب صاحبه بخير منها، ومركبه بخير منه، ومسكنه بخير منه ويحوّل حياته كلّها إلى ما هو أفضل فلماذا يكرهه؟ ويُكمل الإمام عليه السلام: «**وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل عن منازل أنيسة، والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظم العذاب**»[1].

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنَّه قال عند دخوله على رجل قد غرق في سكرات الموت: «**المَوْتُ هُوَ المِصْفَاةُ، يُصَفِّي المُؤمِنِينَ مِن ذُنُوبِهِم فَيَكونُ آخِرُ أَلَمٍ يُصِيبُهُم كفَّارَةَ آخِرِ وِزْرٍ بَقِيَ عَلَيْهِم**»[2]، لأنَّ لحظات النزع الأخيرة تكون لمعظم الناس لحظات ألم وشدّة كبيرَيْن.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، الجزء 6، الصفحة 155.

(2) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار (بيروت: دار المعرفة)، باب معنى الموت، الصفحة 289، الحديث 6.

وروي عن الإمام العسكري عليه السلام، أنَّ الإمام الهادي عليه السلام دخل يومًا على مريضٍ من أصحابه، فوجده يبكي جزعًا من الموت فقال له: «**يَا عَبْدَ اللّه تَخَافُ مِن المَوْتِ لأنّك لا تَعْرِفُه، أرأيتك إذا اتسختَ وتقذرتَ وتأذيتَ من كثرة القذر والوسخ عليك، وأصابك قروح وجرب، وعلمت أنَّ الغسل في حمام يزيل ذلك كله أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك؟ أوما تكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك؟**»، قال: بلى يا ابن رسول اللّه، قال: «**فذاك الموت، هو ذلك الحمام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك من سيّئاتك، فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كلّ غم وهم وأذى، ووصلت إلى كلّ سرور وفرح**»، فسكن الرجل واستسلم ونشط وغمض عين نفسه ومضى لسبيله[1].

فهذا حال الموت، ولكن يبقى المطلوب أن نجد من يعرّفنا هذه الحقيقة ويدلّنا عليها، ويبقى مطلوبًا أيضًا أن

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، باب معنى الموت، الصفحة 290، الحديث 9.

نؤمن بهذه الحقيقة حقّ الإيمان. فبالعودة إلى مثال الرجل المذكور في الرواية السابقة، فإنَّ حاله كانت كشخصٍ قذر جَرِب ذي رائحة نتنة، مقبل على حمام ينظفه ويطيب رائحته، لكنّه يخافه لظنّه أنَّ ما هو مقبل عليه هو فرن أو سجن أو زنزانة، فكان بحاجة أولًا إلى من يعرّفه بأن هذا حمام، وثانيًا إلى القبول والتصديق بهذه الحقيقة، فعند ذلك لا بدّ أن يدخله مستبشرًا، وأن يخاف الحرمان منه وأن يشتاقه.

وورد في رواية طويلة عن الإمام الجواد عليه السلام أنَّه قال ما مفاده أنَّ الناس يكرهون الموت لأنّهم كالأطفال أو المجانين الّذين يكرهون شرب الدواء وفيه عافيتهم وسلامتهم وبقاؤهم وحياتهم وخلودهم[1]، وهل يكره

(1) والرواية واردة في معاني الأخبار للشيخ الصدوق ونصّها: قيل لمحمد بن علي بن موسى صلوات اللّه عليهم: ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت؟ فقال: لأنهم جهلوه فكرهوه ولو عرفوه وكانوا من أولياء اللّه عز وجل لأحبّوه ولعلموا أنّ الآخرة خير لهم من الدنيا، ثم قال عليه السلام: يا أبا عبد اللّه ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقي لبدنه والنافي للأم عنه؟ قال: لجهلهم بنفع الدواء، قال عليه السلام: والذي بعث محمدًا بالحق نبيًا إنَّ من استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع له من هذا الدواء لهذا المتعالج، أما إنهم لو عرفوا ما يؤدي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبوه أشدّ ما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات؛ انظر، معاني الأخبار، مصدر سابق، باب معنى الموت، الصفحة 290، الحديث 8.

الطفل أو المجنون غير العاقل الـدواء، وفيه عافيته وسلامته، إلا لجهله بذلك.

مسـؤوليّاتنا في قِبال الموت

من كان يؤمن بالفهم الآنف الذكر لموضوع الموت، أي عدم كونه حقيقةً عدميّةً معناها الفناء والـزوال، بل حقيقةً وجوديةً مفادها الانتقال من عالم إلى آخر، فإنّ هذا يُرتّب عليه مسؤوليّات عدة، وقد ذكرنا سابقًا – ونعيد هنا وسنعيد مرارًا – أنَّ من أبرز تعاليم هذه الثّقافة وهذا الفهم أنَّ الموت لا بدّ ولا مفرّ منه. وقد ذكرتُ في بداية البحث أنَّ معالجتي لن تكون معالجةً نظريةً أو فلسفيّةً بحتة، بل سأتناول الجوانب الموضوعيّة والحياتيّة، لذلك ولأنّ الموت كما ذكرنا لا بد منه ولا مفر، فإنّ هذا الموضوع يخصّ كلّ فردٍ منا، لأننا جميعًا مقبلون عليه ولا مفرّ من أمر اللّه وقدرته وجبروته، فلا بدّ إذًا من الخوض في تحديد الواجبات والمسؤوليّات الـواردة في التوجيهات النبويّة والأحاديث الشريفة المترتّبة علينا إزاء هذا الموضوع.

أولى المسؤوليات الملقاة على عواتقنا إزاء مسألة الموت أن نستذكره دائمًا، وأن نستحضر في كلّ وقت أنَّه آتينا لا مُحال، وأن لا نغفل عنه ولا نتغافل عنه، ولا ننساه ولا نتجاهله. وقد ذكرت في مورد سابق أنَّه ليس المقصود من ذكر الموت الذكر اللّفظي، بل أن يبقى الموت حاضرًا في البال والذهن والخاطر والعقل والنفس، وأن يبقى قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] منطبعًا في الذهن دائمًا، وأن نعلم علم اليقين أنّنا راحلون يومًا عن هذه الدّنيا، فلا نغفل عنه، لأنَّ الموت كما هو معلوم قد يأتي في أيّ لحظة، وهو يأتي بغتةً، فلا يقي منه الاهتمام بالصحة والمحافظة على الشباب، والاحتماء في حصون مشيّدة.

إنَّ لهذا الذكر للموت بركاتٍ عظيمةً على روح الإنسان وقلبه وسلوكه، وبالتبع على دنياه وآخرته. فذكرُ الموت يحيي القلب الميّت، بتنبيهه للتهيؤ لما هو مقبل، وذكر

(1) سورة الزمر، الآية 30.

الموت يمنع موت الفجأة، يهوّن على الإنسان الموت، ويهوّن عليه مصائب الدنيا بل تهون عليه الدنيا برمّتها، وذكر الموت يُزهّد في الدنيا ويحلّي صاحبه بالرضى منها بالكفاف فلا يُقبِل عليها ولا يطمع فيها. ذكر الموت يمنع من معصية اللّه مقابل شيء من حطام هذه الدنيا الفانية، فيرى الذاكر أنّ شيئًا منها لا يستحقّ غضب اللّه وسخطه، ومعصية اللّه من أجله. وهكذا، فإنّ المتنبه اليقظ إلى حقيقة الموت وحقيقة الوقوف أمام اللّه سبحانه وتعالى، تكتسب حياته قيمةً مضافة، ويكتسب الزمن في فهمه قيمةً مضافة أيضاً، لأنَّه يعلم أنَّ هذا العمر سريع الانقضاء غير معلوم ميقات انتهائه.

وذاكرُ الموت يسارع إلى العمل قبل فوات الأوان، وذاكر الموت يسارع إلى التوبة والندامة، ويسعى إلى إعادة حقوق الناس إليهم، وذاكر الموت في حذرٍ دائم كالعابر وادٍ مليء بالكمائن والألغام، فلا يسترسل ويستسلم للشيطان، وذاكر الموت بذكره الموت يمحّص ذنوبه ويطهر

نفسه، وذكره للموت يحول بينه وبين الشهوات وبينه وبين المعاصي، كما يؤهله ليكون لائقًا بشرف الشهادة في سبيل اللّه سبحانه وتعالى، وقد ورد في بعض الروايات أنَّ الذاكر للموت كثيرًا يحشر في زمرة الشهداء، وإنْ لم يُقتل في سبيل اللّه[1].

أمّا المسؤولية الثانية، وهي ذات خطر كبير، وهي التأهّب للموت والاستعداد له. وهنا يحقّ للناظر استغراب حال البشر، لأنهم لو فرضنا وجود تحذير طبي بأنَّ هناك احتمالًا لوصول وباء شلل الأطفال، مثلًا، إلى بلدهم، فإنّ جميعهم سيخافون على أطفالهم، ولن يتوانوا لحظةً عن تلقيحهم باللّقاح المناسب مهما كلّف من ثمن، لأنَّ هناك خطرًا محتملًا، والمخبر هنا هم الأطبّاء والمتخصصون، وليس ذلك وحيًا إلهيًّا ولا إخبارَ نبيٍّ. ولو فرضنا أن أحد

(1) ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه سئل: يا رسول اللّه هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: نعم من يذكر الموت بين اليوم والليلة عشرين مرة؛ انظر، المحدث النوري، مستدرك الوسائل، كتب الطهارة، الجزء 2، أبواب الاحتضار وما يناسبه، باب استحباب كثرة ذكر الموت وما بعده والاستعداد لذلك، الحديث 19.

المتخصصين الاقتصاديّين أخبر أنَّ البلاد ستشهد، مثلًا، وبناءً على معطيات علميّة وإحصائيّة، أزمةً في إنتاج واستيراد القمح، ما سيؤدّي إلى نقصٍ ملحوظٍ في كل منتجات القمح، فإنَّ الجميع سيعمد سريعًا إلى شراء وتخزين كميّات كبيرة منه، وسيرتفع سعر الطحين ارتفاعًا كبيرًا، وكذا لو تنبّأ أحد المحللين أنّ حربًا ستقع بعد أسبوعين، فالكل سيخطط لكيفيّة تسيير أموره المعيشية في هذه الحرب المقبلة.

وفي مقابل ذلك، إنَّ اللّه الّذي خلقنا وخلق هذا الوجود أخبرنا، وكذا المئة وأربعة وعشرون ألف نبي الّذين بعثهم، وعشرات آلاف الأوصياء، وكلّ الأولياء والعرفاء والعقلاء والحكماء، أخبروا بأنَّ الموت استحقاقٌ آتٍ يجب أن نتهيّأ له، بل إنّنا نشهد بأعيننا وفي كلّ يوم تشييع الموتى إلى قبورهم، ومع ذلك تجد كثيرًا من الناس يغفل عن الاستعداد لذلك، ولا يقدّم لآخرته كأنَّ الموت لن يطاله.

التهيّؤ للموت والاستعداد له

كيف نتهيّأ للموت ونستعدّ له؟ وكيف نجهّز أنفسنا للرحيل عن هذا العالم والانتقال إلى العالم الآخر؟ والجواب على ذلك واضحٌ وبيّنٌ في تعاليم الشريعة وفي روايات أهل البيت عليهم السلام، وهو الإيمان والمعرفة والعمل الصالح واجتناب المعاصي، وهذا هو الاستعداد المطلوب. وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه عندما سُئل عن الاستعداد للموت قال: «أداء الفرائض»، أي أن نؤدّي الفرائض الواجبة وما فات منها. ومن ذلك تأدية حقوق الآخرين، فنؤدي حقوق الناس ومظالمهم، لأنّها لا تسقط عن أحدٍ إلا بتأديتها، وحتى الشهداء في سبيل اللّه؛ فالله سبحانه وتعالى يسامحهم في حقوقه عليهم الّتي لم يؤدّوها، ولكنّه لا يسامح في حقوق الناس بل يجب أن يكونوا قد أدّوا هذه الحقوق قبل استشهادهم، أو أن يؤدّيها أهلهم وذووهم عنهم بعد استشهادهم، أو أن يسامحهم أصحاب الحقوق، وفي هذا الأمر تفصيل.

وبالعودة إلى حديث أمير المؤمنين عليه السلام، فإنَّه قال: «**أَدَاءُ الفَرَائِضِ واجْتِنَابُ المَحَارِمِ والاشْتِمَالُ على المَكَارِمِ**»، أي على مكارم الأخلاق والقيم الأخلاقيّة من صدق وحسن خلق وأداء للأمانة وغيرها مما حثّ عليه أهل البيت عليهم السلام في العديد من كلماتهم. ويكمل بعد ذلك: «**ثُمَّ لَا يُبَالِي أَوَقَع عَلَى المَوْتِ أَمْ وَقَعَ المَوْتُ عَلَيْه**»، فهذا خير استعدادٍ للموت، فإنَّ صاحبه كما قرأت لا يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه.

ولقد كان هذا حال أمير المؤمنين عليه السلام، فيذيّل قوله السابق بقوله: «**والله مَا يُبَالي ابنُ أبي طالب أَوَقَع على الموتِ أم وَقَع الموتُ عليه**»[1]، وذلك لأنّ إنسانًا كعلي عليه السلام وصل إلى مرحلةٍ لم يعد معها الموت مصدر خوفٍ له، بل أصبح يأنس به لعلمه أنَّه بالموت ينتقل من دار مجاورة اللّئام إلى دار مجاورة الكرام.

(1) الحديث وارد في: محمد الريشهري، ميزان الحكمة، حرف الميم، عنوان الموت، تفسير الاستعداد للموت، الحديث 19210.

وكذا كان حال أولاده وذراريه، فهذا علي الأكبر عليه السلام يعيد كلام جده في حديثه مع أبيه الحسين عليه السلام، وهي قصّة معلومة تُتلى على مسامعنا في مجالس السيرة الحسينيّة، حيث سأله: «**أَوَلَسْنا على الحقّ؟**» فقال له الحسين عليه السلام: بَلَى، فقال: «**إذًا لا نُبَالي وَقَعْنا على الموتِ أو وَقَعَ الموتُ علينا**».

فمن كان سالكًا سبيل الحق، مجاهدًا في سبيل اللّه، فما الّذي يضيره أوقع على الموت أو وقع الموت عليه، لو اَستُشهد أو لو بقي على قيد الحياة؟ بل قد يكون – من كانت حاله على هذه الشاكلة – راغبًا بالموت ولقاء اللّه عزّ وجل محبًّا له، فعن مولانا أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام أنّه قال: «**إنّي لا أرَى الموتَ إلّا سعادةً والحياةَ مع الظالمينَ إلّا برمًا**»، فما هو موت السعادة هذا؟ هو الموت الذي ينقلك من جوار اللّئام إلى جوار الكرام، من بؤس وعناء وضراء وسجن إلى قصر ونعيم وجنّة خالدة وروح وريحان، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

بشر، وما نفهم وما لا نفهم. إذًا، المسؤوليّة الرئيسيّة هي هذا الاستعداد، فإذا كنّا مستعدّين فلا خوف علينا ولا حزن.

وقفةٌ مع كربلاء

هذا الفهم لموضوع الموت هو الّذي حسم الأمور ليلة العاشر ويوم العاشر من المحرّم، إذ ما الّذي دفع أولئك الّذين بقوا مع الإمام الحسين عليه السلام للبقاء معه، مع علمهم أنَّ البقاء معه معناه الموت المحتوم؟ ما دفعهم إلى ذلك هو فهمهم الصحيح لمسألة الموت وعلمهم، من جهة، أنّهم إن لم يموتوا غدًا ناصرين إمامهم، فإنّهم سيموتون لاحقًا، ولن يمكثوا كثيراً بعده، وعلمهم، من جهةٍ أخرى، أنّهم إن خذلوا الحسين عليه السلام وماتوا بعد ذلك، فإنهم سيقفون يوم القيامة للحساب والسؤال، وكأنّي بهم ولسان حالهم يومذاك يقول: ماذا سنقول لله عزّ وجل؟ أنقول إنّا تركنا وليّك في ظلمة اللّيل وخذلناه؟ وماذا سنقول لرسول اللّه صلى الله عليه وآله الّذي أوصانا بطاعة الحسين عليه السلام ومودّته؟

أنقول له تركنا حفيدك في وسط الصحراء، ولذنا في هذا اللّيل من أجل أن يبقى لنا بعض دنيا وبعض طعام وشرابٍ وأمنٍ وسكينة؟ كيف نواجه اللّه يوم القيامة؟ وما الذي ينتظرنا إذا نصرنا الحسين عليه السلام؟ تنتظرنا بعد هذه الساعات الجنان والنعيم، والروح والريحان والرضوان، والجوار مع اللّه وأنبيائه وأوليائه.

بهذا الفهم، وهذه البصيرة، وهذا الإيمان، وهذه المعرفة، وقف أصحاب الحسين عليه السلام معه بكلّ إرادة وعزم، وكانت كربلاء الّتي نعرف، وكان الفعل الجهادي الّذي ختم لهم بأحلى عاقبة قد يتمنّاها إنسان، وهي أن يقتل في سبيل اللّه وبين يديّ وليّه. فالشهادة ميتة ليس كمثلها ميتة، بل هي كيفيّة خاصّة من الموت. فقد يموت الإنسان على فراش المرض أو بحادثٍ، أو بغرقٍ أو بزلزال، إلا أنَّ موت الشهادة هو الموت الخاص في سبيل اللّه. وإذا كان لا بدّ من الموت فأفضل الموت موت الشّهادة، وأن يغادر الإنسان الدّنيا إلى الآخرة عبر بوّابة الشهادة،

حيث يقال إنَّ للجنة عدّة أبواب أحدها باب الشّهداء، وهو أقصر الأبواب طريقًا إلى الجنّة وأوسعها.

فأصحاب الحسين عليه السلام رأوا أمامهم هذه الفرصة الاستثنائيّة والعظيمة التي يتمنّاها كل مسلمٍ وكلّ محبٍّ سانحةً لهم، أولسنا نقول في كلّ يوم وفي كل مناسبة، وعند كلّ حدثٍ وذكرٍ للحسين عليه السلام «يا ليتنا كنا معك يا أبا عبد اللّه فنفوز فوزًا عظيمًا»، فهذا الفوز العظيم كان أمامهم، ولذلك كانوا في هذا الجانب من الجبهة، وقد كان في الجبهة الثانية أولئك الّذين نسوا الموت وغفلوا عنه وتغافلوا عنه، وتجاهلوه وكرهوه، وجاءهم لاحقًا وسريعًا ما جاءهم، وأخذ منهم كلّ شيء فخسروا الدنيا والآخرة.

إذًا ما نحتاجه نحن هو هذا الفهم وهذا الحذر وهذا التنبّه، لنكون من أهل العمل، ومن أهل الاستعداد والتأهب. نسأل اللّه سبحانه وتعالى أن يجعل عواقب أمورنا خيرًا، وأن يختم أعمارنا بالعاقبة الحسنة وبالخاتمة

الطيّبة التي يتمنّاها كل مؤمن، وأن يجعل موتنا قتلًا في سبيله تحت راية وليّه، وأن يحشرنا مع الأنبياء والمرسلين والأئمة والأولياء والصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا.

الفصل الثالث

خصائص الشّهادة والشّهداء

تمهيد

خُضنا في الفصل الأول البحث في موضوع مفهوم «العمر»، وحدّدنا المعايير السليمة لفهمه بحسب النظرة الإسلاميّة، وذكرنا هناك أهمّ السّمات والخصائص المتعلّقة بهذا المفهوم، ثمّ أتبعنا ذلك بتحديد المسؤوليّات المترتّبة على كلّ فردٍ منا تجاه العمر الّذي يعيشه.

ثمّ تناولنا في الفصل الثاني موضوع «الموت»، وتحدّثنا عن الفهم الإسلامي الصحيح لهذا المفهوم، وتطرّقنا هناك لمسألة طلب إطالة العمر، والأساس الّذي ينبغي أن يكون عليه هذا الطلب بحسب الوارد عن أهل البيت عليهم السلام. كما تحدّثنا عن أصناف الناس في قبال الموت، ثمّ حددنا المسؤوليّات المترتّبة على الفرد بلحاظ حقيقة الموت.

بعد ما مرّ، فإنّنا سنقف في هذا الفصل على موضوع «الشهادة»، وهي نوع صنفٍ خاصٍّ من أنواع الموت، لنحدّد المعنى الحقيقي للشهادة والمقام السامي لها، بالإضافة إلى مكانة الشهيد عند اللّه، لنعرّج بعدها إلى تفصيل القول في معنى «سبيل اللّه»، ونختتم البحث بوقفةٍ مع بعض النماذج.

مقدمة تأسيسيّة

قبل الدخول في موضوع بحثنا حول خصائص الشّهادة والشّهداء، لا بدّ من طرح بعض العناوين التأسيسيّة والتأكيد عليها في سبيل التمهيد لخوضٍ صحيح في المبحث.

وأول ما يهمّنا الإلفات إليه هو أنَّه في الحديث عن الشّهادة وعشق الشّهادة وحبّها، ينبغي أن يلحظ الفرد منّا الموضوع باعتباره مشروعه الشخصيّ المتعلق به هو، وليس مشروعًا عامًّا يعبّر عن توجّه عامّة الأمّة. فمشروع

الأنبياء وحركتهم مثلًا أو مشروع الحركات الإسلاميةّ، أو مشروع حزب اللّه العامّ، ليس دفع الناس نحو الشهادة، بل تأتي الشهادة كمشروع شخصي لأفراد في هذه الحركات. كثير من هؤلاء الأفراد عاشقين للشّهادة طالبين لها، وقد يمنحهم اللّه ذلك أو لا يمنحهم، وهذا متعلّق بمشيئة اللّه سبحانه وتعالى، إلا أنَّه ليس عنوانًا عامًّا يمثل غاية المشروع العامّة، بل المشروع العامّ للأنبياء صلوات اللّه عليهم ولخاتمهم صلوات اللّه عليه وعلى آله الطيّبين الطاهرين – وكذا بالتّبع لكل من يتبع نهجهم، ونحن في حزب اللّه ممّن يتّبعهم – فإنّ المشروع هو تحقيق الحياة الطيّبة للأمم والشعوب، والوصول بالناس في هذه الدنيا إلى ما هو خيرٌ لهم في الدنيا وفي الآخرة. فالمشروع مشروع الحياة الطيّبة لا الشهادة، نعم الشهادة ترتبط بالمشروع في سياقات محدّدة، ولكن الأصل والأساس الذي يطلّع إليه الأنبياء عليهم السلام ورسالات السماء والدّين الخاتم هو كيفية إقامة الحياة الطيبة المحكومة بالعدل والقسط المشمولة بالأمن والسلام والسكينة والطمأنينة

في دار الدنيا، وكيفية تحقيق العيش الكريم للنّاس في الدنيا والّذي يمكّنهم من التزود للحياة الطيبة الباقية الخالدة في الآخرة، فهذا هو المشروع.

ولذلك مثلًا، فإنّنا عندما نتحدّث عن صاحب الزمان أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، فإنّنا نقول، وكما ورد في أحاديث رسول اللّه ﷺ، إنَّ الإمام عندما يخرج فإنّ هدفه لن يكون الدفع بجميع الناس نحو الشهادة، بل هدفه أن يملأ الأرض قسطًا وعدلًا وسلامًا وأمنًا وكرامةً، بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا وإذلالًا وترهيبًا.

نعم، عندما حاول الأنبياء على مرّ التاريخ الأخذ بأيدي الناس نحو هذه الحياة الطيّبة كان هناك جبابرة وطغاة حالوا دون ذلك، فواجهوا الأنبياء وأتباع الأنبياء، ونكّلوا بهم وسجنوهم، وقتلوهم وصلبوهم، ونشروهم بالمناشير، وقرضوهم بالمقاريض، وألحقوا بهم ألوان العذاب، فسقط منهم شهداء. وليس الأمر محصورًا بآل ياسر في مكة، ولا بشهداء بدر، بل قد سبقهم للشهادة كثيرون من

أتباع الأنبياء السابقين من المؤمنين الذين قُطّعوا وقُتلوا واستشهدوا لا لشيء إلا لأنّهم حملوا هذا الإيمان وسلكوا هذا الطريق.

فهذه إذًا النقطة الأولى التي ينبغي أن نتنبّه إليها.

مقام الشّهادة ودرجة الشّهداء

النقطة الثانية التي سنعالجها بعد ما طرحناه من مقدمة هي مكانة ومقام ودرجة الشّهداء. وذلك على ضوء مكانتهم عند الأمّة أوّلًا، ومكانتهم عند اللّه سبحانه وتعالى، وما ورد في تعاليم الإسلام وفي القرآن الكريم، وفي رسالات الأنبياء، ثانيًا.

أمّا في اللّحاظ الأوّل، فإنَّه ما من شكٍّ ولا ريب أنَّ للشّهيد عند المسلمين مكانةً عظيمةً ورفيعةً، وهذا من البديهيّات التي لا تحتاج إلى استدلال وشواهد، بل هي ممّا أجمع عليه المسلمون في كلّ العصور وكلّ الأجيال وكلّ المراحل على اختلاف مذاهبهم

واتجاهاتهم وتيّاراتهم، وله في وجدان الأمة ووجدان المسلمين وعقولهم وقلوبهم من الاحترام والتقدير والتقديس القدر العظيم، بغضّ النظر عن تفصيل حاله في الآخرة واختلاف درجات الشّهداء فيها، بل أصل الشّهادة لها في فهم المسلمين المكانة وعلو الدرجة والاحترام والتقدير.

إنّ الكلام يتعدّى مجرد المسلمين، فسيرة العقلاء من أهل كلّ أمّة، وبمعزل عن الدين الّذي يتبعونه طوال التاريخ، ترى من يقاتل دفاعًا عن البشر وعن الأعراض والدّماء والأموال والأوطان، ويُقتل في هذا الطريق مستحقًا لعظيم الاحترام والتقدير ويُسمى كذلك شهيدًا. وهذا سائد عند كلّ الثقافات والديانات، بل عند كلّ العقلاء، سواء آمنوا بالآخرة أو لم يؤمنوا، وسواء كانوا مؤمنين بدين أو لم يكونوا مؤمنين به. فهذه الفئة من الناس، أي الشهداء، هي ممّا أجمعت البشريّة على تقديره واحترامه والنظر إليه بتكريم وإعزاز.

كرامات الشّهداء عند اللّه

أمّا في اللّحاظ الثّاني، أي بالعودة إلى تعاليم الإسلام وإلى كتاب اللّه عز وجل وسنّة رسوله ﷺ، فإنّنا نجد شيئًا خاصًا، أكثر من مجرّد التقدير والاحترام والتبجيل، ويندرج ذلك في عناوين عدّة.

أوّلًا، فيما خصّ مكانتهم عند اللّه سبحانه وتعالى، نكتفي بالإشارة إلى الآية الكريمة التي لطالما تكلّمنا عنها، وهي قول اللّه سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[1]. فالله سبحانه يبشّر الّذين يطيعون اللّه والرسول بالعاقبة الحسنة الّتي ستكون لهم، وهي حشرهم مع النبيّين والصدّيقين والشهداء. واللّافت هنا أنّه سبحانه جعل الشهداء في مصافّ ورتبة ومقام النبيّين والصديقين، وهذا من

(1) سورة النساء، الآية 69.

عظيم الإشارات على عظم مقامهم، بحيث بات يحبّب للمطيعين الطاعة بوعدهم أنّهم سيكونون – لو لزموا طاعته سبحانه وطاعة نبيّه – مع الشهداء، وهو مؤشّر صريح على مكانتهم العالية والرفيعة عنده سبحانه، ولا يحتاج ذلك إلى المزيد من الإيضاح.

ثانيًا، في حياة الشّهيد، وهو أمرٌ لا نقاش فيه، ودلّت عليه الآيات القرآنيّة صراحةً، ومفادها أنَّ الشّهيد عند سقوطه ومغادرة روحه لجسده ينتقل إلى حياة من نوعٍ خاصّ، فيبقى حيًّا بل تصبح حياته أعلى رتبةً وأقوى حقيقةً، وذلك قبل قيام الساعة، أي في الزمن الفاصل بين الموت الشخصي وبين قيام القيامة الكبرى وحشر الناس جميعًا إلى اللّه. ومعلومٌ أنَّه بين موت كلّ فرد وبين قيام الساعة فترةً زمنيةً يقضيها الإنسان. فأبونا آدم عليه السلام مات منذ آلاف السنين وملايين الناس ماتوا كذلك منذ سنين طويلة، ولكنّ القيامة الكبرى لم تقم، فأين هم الآن؟

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾[1]، حيث كان علم ميعاد قيام الساعة خفيًا لا يعلمه إلا اللّه، فإنَّ الجواب عن سؤال حال الإنسان بين موته وبين قيامها معلوم، فالإنسان يحيا هذه الفترة الزمنيّة في عالمٍ يُسمَّى بعالم البرزخ، يبدأ من عالم القبر وينتهي بما قبل يوم الحشر.

فللشّهيد إذًا حياةٌ في عالم البرزخ، بل له فيه جنته الخاصّة، وهنا يخاض نقاش أنَّه هل هناك جنّةٌ مستقلّة قائمة بذاتها في عالم البرزخ يُحشر إليها الشهداء، أو أنَّ قبر الشهيد يتحوّل إلى روضةٍ من رياض الجنَّة، ويُفتح له على الجنة الأخرويّة أبوابًا من النّور والطيب والعطر والرحمة والسعادة والهناء؟ هذا تفصيل لا حاجة لنا به الآن[2]. ولكنَّ الأصل الثابت أنَّ هؤلاء الشهداء ينتقلون إلى الحياة الحقيقيّة، الّتي يتنعّمون فيها ويأمنون ويسلمون،

(1) سورة النازعات، الآية 42.

(2) وقد فصّل سماحته الكلام في موضوع البرزخ وحال الإنسان فيه في كتابه صحراء المحشر، الصادر عن دار المودة، بيروت، 2016م، فإن شئت فارجع إليه.

ويتلذذون ويرون من كرامة اللّه وفضله وكرمه عزّ وجل ما لا يخطر على قلب إنسانٍ ويعجز عن وصفه لسان، وذلك بانتظار قيام الساعة.

يقول اللّه عزّ وجل في خطابٍ للمسلمين منذ زمن النبي ﷺ إلى يوم القيامة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[1]، أي هم الآن أحياء، في حال مكوثكم في الدنيا هم أحياء. ويقول في مورد آخر أكثر وضوحًا في دلالته، لأنَّه قد يناقش أحد في دلالة الآية الأولى، فنضع بين يديه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]. فهؤلاء الشهداء ليسوا أمواتًا، وهم عند اللّه يرزقون. وقد ورد الرزق هنا مطلقًا ومفتوحًا على معانٍ عديدة، فما هو الرزق الّذي يُرزقونه من كرامةٍ ونعمٍ ولذّاتٍ وسلام وقربٍ وروحٍ وريحان؟ اللّه سبحانه أعلم، ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3]،

(1) سورة البقرة، الآية 154.

(2) سورة آل عمران، الآية 169.

(3) سورة آل عمران، الآية 170.

أي يفرحون بكلّ هذا الفضل الّذي يأتيهم به اللّه، والشاهد أيضًا: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾[1]، فهؤلاء الشهداء حين يتلقون كلّ هذا النعيم وكلّ هذا الفضل منه سبحانه وتعالى فإنّهم يفرحون به ويستبشرون بأهلهم الّذين لمّا يلحقوا بهم بعد. إنّهم إن كانوا من أهل الطاعة والجهاد والشهادة، فإنَّه ينتظرهم هذا الّذي حصلوا عليه الآن قبل القيامة الكبرى، ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]، فينظرون إلى الباقين في الدنيا مطمئنين إيّاهم بأنَّه مهما طال مكوثكم وبقاؤكم فيها، فإنَّ أجر العاملين والمضحّين والمجاهدين في سبيل اللّه منكم لا يضيع عند اللّه سبحانه وتعالى بمضيّ الزمن، فليس الحال عنده كما في الدنيا.

يغفل كثيرون في الدّنيا عن تأدية حقوق المنعّمين

(1) سورة آل عمران، الآية 170.

(2) سورة آل عمران، الآيتان 170 و171.

وأصحاب الفضل، بل قد يواجه بعض الناس أهلَ الإحسان بالإساءة، وهو ما يحصل مع هذه المقاومة في كثيرٍ من الأحيان، فرجال هذه المقاومة قدّموا في سبيل وطنهم وشعبهم والشعوب العربيّة بل وكلّ مسلمي الأمّة كثيرًا من التضحيات، والمقاومة بذلت في هذا السبيل شهداءها وجرحاها وأسراها ومجاهديها، كما أنَّ الانتصارات الّتي شهدتها المقاومة في لبنان بهزيمة المشروع الإسرائيلي الّذي يتهدد كل شعوب المنطقة كانت انتصاراتٍ للأمّة كلها، إلا أنَّ كثيرين يبادلون ذلك كله بالنكران، وبدل أن يؤدّوا للمقاومة أقلّ حقوقها وهو الاعتراف لرجالها وشهدائها بالفضل، فإنّهم ينكرون عليها فعالها ويبادلون إحسانها ودماء شهدائها وعذابات جرحاها بالإساءة. هؤلاء الشهداء يقولون للمجاهدين الذين لم يلحقوا بهم لا تحزنوا من هؤلاء ولا تأسوا من فعالهم، فإنَّ اللّه لا يضيع أجر المؤمنين.

إذًا فالشّهداء أحياءٌ بكلّ ما لكلمة الحياة من معنًى، وحياتهم حياة الفضل والنعمة والرحمة والجود والكرم الإلهي.

ثمّ الكرامة الثالثة، بحسب الوارد في الأحاديث الشريفة، أنَّ الشّهيد مغفورةٌ ذنوبه في اللّحظة الّتي يسقط فيها شهيدًا ويضرّج بدمه، وفي لحظة خروج روحه من جسده فإنَّه تغفر له كل سيّئاته وذنوبه.

وقد ورد في الحديث أنَّ «**السَّيْفَ مَحَّاءٌ لِلْخَطَايَا**»، أي إنَّه يمحو الذنوب، وليس استعمال السيف في هذه العبارة لقصد حقيقة السيف بل هو استعمال مجازي يراد منه موت الشهادة، أي الموت مقتولًا بالسيف. فالشّهادة تمحو ذنوب صاحبها، إلّا ما عليه من حقوق للناس، فقد أشرنا في الفصل السّابق إلى أنَّ حقوق الناس لا تسقط عن أحدٍ إلّا بأن يسامح صاحب الحق أو بأن يقضي أحد ذوي الشّهيد الحقوق لأصحابها، أمّا ذنوبه وخطاياه فإنّها كما عرفت تمحى وتُغسل، وهذا من عظمة الشّهادة.

والكرامة الرابعة أنَّ الشّهيد لا يفتن في قبره، فكلّ ما ورد في تعاليمنا عن القبر ووحشته وظلمته ووحدته، وعن

ضغطة القبر وسؤال منكر ونكير وغير ذلك، فالشّهيد آمن من ذلك كلّه، وهذا من فضل اللّه عليه.

ثمّ الكرامة الخامسة وهي حقّ الشّفاعة، إذ للشهيد يوم القيامة حقّ أن يشفع لأهله وذويه ومحبّيه وإخوانه. ومن هذا الباب ما نذكره دائمًا عن عوائل الشهداء بأنّهم من المشفوع لهم يوم القيامة، وهذه الكرامة خاصّة بالأنبياء والأولياء والشهداء. وفي بعض الروايات أنَّ الشّهيد عندما يُؤمر به إلى الجنّة فإنّه يقف على الباب، فيُسأل «ألا تدخل؟»، فيقول لا أدخل حتّى يدخل أبواي معي. وإنَّ بعض الشهداء يشفع للعشرات وبعضهم للمئات وبعضهم للآلاف؛ لأنَّ الشهداء أنفسهم درجات ومراتب مختلفة عند اللّه سبحانه وتعالى[1].

(1) وقد ورد عن النبي ﷺ: «الشهيد يغفر له في أول كل دفقة من دمه، ويزوج حوراوين ويشفع في سبعين من أهل بيته»، شفاعة الملائكة والأنبياء عليهم السلام والعلماء والشهداء، مركز المصطفى صلى اللّه عليه وآله، الصفحة 19؛ وورد عنه ﷺ أيضًا: «يُحمل الناس على الصراط يوم القيامة فيتقاذع بهم جنبتا الصراط تقاذع الفراش في النار، ثم يؤذَن للملائكة والنبيين والشهداء والصالحين فيشفعون، ويخرجون فيشفعون ويرجون فيشفعون فيجابون»، المصدر نفسه، الصفحة 12.

وفي ختام الكلام على كرامة الشهيد يكفينا القول إنَّ في أحاديثنا الشريفة ممّا روي عن النبي ﷺ أنَّ الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا يوم القيامة من الناس صنفان، الأوّل هم أهل جهنّم الّذين يقولون ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحًا﴾[1] فيطلبون فرصةً جديدةً لإصلاح الفاسد من أمر آخرتهم، والثاني هم الشهداء، فالشهيد بعد أن جاهد في الدنيا وتعب فيها وقاتل وتألمّ واستشهد يتمنّى العودة إليها، وذلك بحسب قول النبي ﷺ لعظمة ما يرى الشّهيد يوم القيامة من فضل اللّه عزّ وجل وكرامته فيتمنّى لو يرجع إلى الدنيا ليُقتل مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً وخامسةً في سبيله سبحانه وتعالى.

فهذه مكانة الشّهيد ودرجته، وهذا أجر الشهيد عند ربّه، فهنيئًا لكلّ الشهداء الذين مضوا في هذا الطريق، وهنيئًا لعوائلهم الصّابرة، نسأل اللّه تعالى أن يجعلنا من الشهداء في سبيله وأن يرزقنا ما رزقهم.

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 99 و100.

مفهوم الشّهادة وحقيقة معنى الشّهيد

هنا نصل إلى العنوان الثالث، وهو الكلام في مفهوم الشّهيد وفي تحديد معنى الشّهيد، فمن هم هؤلاء الشهداء الّذين أعدّ اللّه لهم ما ذكرنا من النعيم والكرامة؟ وكيف نحدّد مصاديق عنوان ومفهوم الشهادة؟

بالعودة إلى القرآن الكريم، فإنَّ الآيات تارةً تتحدّث عن فئة من النّاس تسميهم بالشهداء دون تحديد معنى الشهيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾[1]، وأخرى تذكر عنوانًا أكثر تفصيلاً قد يكون جملةً شارحةً لمعنى الشهيد ومحدّدةً المقصود من كلمة الشّهيد الذي تعدّ هذه مكانته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ

(1) سورة الحديد، الآية 19.

(2) سورة البقرة، الآية 154.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[2]، وغيرها من الآيات. ومن هذا الصنف الثاني من الآيات، نعلم أنَّ الشهيد هو من يقتل في سبيل اللّه، فمفهوم الشّهيد مركّب من جزأين أولّهما القتل، وهي الكيفيّة الخاصّة من الموت، فينبغي أن يكون الموت قتلًا لا جرّاء مرضٍ أو إثر حادثٍ أو لانقضاء عمره، وثانيهما أن يكون في سبيل اللّه سبحانه، فليس كل قتلٍ شهادةً، بل الشهادةُ هي خصوص أن يقتل الإنسان في سبيل اللّه عزّ وجل.

نعم، لا يجب أن يخفى عليك أنَّ بين الناس من لا يموت مقتولًا في سبيل اللّه، ولكنّه يحوز عند اللّه مكانة الشهداء، وهذا واردٌ في المرويات الشريفة. وقد ألمحنا إليه في الفصل السابق في كلامنا عن أنَّ من يُكثر ذكر الموت في حياته يُحشر مع الشهداء، وورد ذلك في غيرها

(1) سورة آل عمران، الآية 169.

(2) سورة محمد، الآية 4.

من الأحاديث، الّتي منها أنَّ من مضى في طريقٍ يُجاهد في سبيل اللّه ويطلب الشهادة ويتمنّاها ويعمل جاهدًا للقاء اللّه سبحانه وتعالى، فإنَّه يُحشر مع الشهداء حتى لو لم يقدّر له اللّه القتل في هذا السبيل. وفي بعض الروايات أنَّ المرأة الحامل لو توفيت أثناء وضع حملها – ومعلوم أنَّ نساء الأزمنة الماضية كنّ يعانين أضعاف ما تعاني نساء هذا الزمن – فإنّ أجرها أجرُ الشهداء. وهكذا فالعناوين كثيرة، ولكنَّ المفهوم الأساسي كما ذكرنا مركبٌ من جزأين: الأوّل أن يُقتل الإنسان والثاني أن يُقتل في سبيل اللّه.

أما الجزء الأوّل فواضحٌ لا يحتاج إلى تفسير، بل إنّنا نرى هذا المعنى في كلّ يوم.

وأمّا الثاني فهو يحتاج إلى شرحٍ وإيضاح، فما هو سبيل اللّه عزّ وجل؟ خاصّة وأنّ ذكر سبيل اللّه في الآيات لم ينحصر بموضوع القتل، بل بالعودة إلى الآيات الكريمة نجد أنَّ الدعوة تشمل أيضًا القتال وليس فقط القتل، فحتى فعل القتال يريده اللّه تعالى في سبيله عزّ وجل،

ومن الأمثلة في بعض الآيات قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[1]، اللاّفت في هذه الآية أنّها تتناول القتال الدفاعيّ في وجه من يقاتلنا، وهو أمرٌ يوجبه العقل والفطرة، فحتى هذا القتال البيّن الوجوب يريده اللّه سبحانه وتعالى في سبيله، لا في سبيل مغنمٍ شخصيّ أو جاهٍ شخصيّ، ولا في سبيل ما سيقال عنّا وما سيُكتب عنّا في كتب التاريخ، بل في سبيل اللّه عز وجل وطلبًا لرضاه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[2].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[3]، أي الذين يشترون

(1) سورة البقرة، الآية 190.

(2) سورة الصف، الآية 4.

(3) سورة النساء، الآية 74.

الآخرة ويبيعون الحياة الدنيا، ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[1]، وهذه الآية بشرى للمجاهدين الّذين يبقون على قيد الحياة لأنَّ اللّه سبحانه وتعالى يعطي للغالب من المجاهدين الذي بقي على قيد الحياة أجرًا عظيمًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾[2]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[3].

فيتّضح من صريح نصوص الآيات السابقة وغيرها ممّا لم نورد أنَّ المسألة الجوهرية هي سبيل اللّه، التي يؤتى كل مقاتل وكل مقتول فيها أجرًا عظيمًا.

(1) سورة النساء، الآية 74.

(2) سورة النساء، الآية 75.

(3) سورة النساء، الآية 76.

في تحديد سبيل اللّٰه

نعود لتحديد معنى سبيل اللّه، فنقول: السبيل كما لا يخفى هو الطريق، ومنه قول القائل: «في سبيل الشيطان»، أو «في سبيل الدنيا»، أو «في سبيل الجاه»، أو «في سبيل المال»، أو «في سبيل العلم»، أي على الطريق الموصلة إلى الشيطان، أو الدنيا، أو الجاه، أو المال أو العلم. فسبيل اللّه هو الطريق الموصلة إليه جلّ وعلا. والطريق الموصلة إلى اللّه سبحانه لا تنحصر بمسلك دون آخر، بل كلّ فعلٍ من أفعالنا وكلّ تفصيل من تفاصيل حياتنا الّتي نعيشها إن كان مضبوطًا ومحددًا بحدود رضا اللّه عز وجل فهو خطوة على هذا الطريق الموصل إليه، ويندرج في خانة المحبوب عند اللّه عزّ وجل، وكما ذكرنا سابقًا فإنَّ العبد يتقرب إلى اللّه بما يحبه اللّه وهو التزام ما أمر به وما دعا وأرشد إليه.

إذًا، فسلوك سبيل اللّه قد يكون بطلب علمٍ أو بطلب رزق – حيث ورد أنَّ «**الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل**

اللّه»[1] – أو بخدمة أخٍ أو بجهاد عدوٍّ أو بدفاعٍ عن مظلومٍ، أو بمساعدة محتاجٍ، أو بقضاء حاجةٍ، أو بحلّ مشاكل الناس. فهذه الأفعال كلّها وغيرها إن كانت مرضيةً لله عزّ وجل وفعلناها قاصدين بها وجه اللّه سبحانه لا صرف وجوه الناس إلينا ليقال عنّا أنّا محسنون وفاعلون للخير، فإنّها أفعالٌ موصلةٌ إلى اللّه، ويصدقُ عليها أنّها كانت في سبيل اللّه. ومن الأمثلة والشواهد موضوع طلب العلم، فلطالب العلم فضلٌ عظيمٌ عند اللّه في الدنيا والآخرة لا ينكره أحدٌ، حيث ورد أنَّ «**الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم**»[2]، وأنَّ «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل اللّه حتى يرجع**»[3]، إلاّ أن ذلك محصور بمن كان علمه لله، وفي سبيل اللّه وطلبًا لمرضاة اللّه ولخدمة عباد اللّه، أمّا من كان يطلب العلم ليباهي به السّفهاء أو ليماري ويجادل به العلماء فإنّه مذمومٌ علمه، سيئةٌ عاقبته.

(1) الكليني، الكافي، كتاب المعيشة، باب من كد على عياله، الحديث 1.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، الجزء 1، الصفحة 8.

(3) الترمذي، سنن الترمذي، الجزء 4، الصفحة 137.

وأمّا القتال، فكيف يكون في سبيل اللّه؟ وأيُّ قتالٍ هو؟ هو القتال الّذي يكون الإنسان مأمورًا به من اللّه سبحانه، أو يكون محبوبًا من اللّه عز وجل، ومنه ما أوردناه في الآية التي ذكرناها سابقًا: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾، أي القتال في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لأنَّ هذا موردٌ لرضا اللّه سبحانه.

بعض النماذج التقريبيّة

لا ضير من طرح بعض النماذج لتقريب الفكرة والتنزّل عن الطرح المفهومي النظري، بغية الوصول إلى الخلاصات المطلوبة. فأوّل النماذج عندما هاجمت قريش المسلمين في معركة بدرٍ أو أُحُد أو غيرها من المعارك، أو عندما حاصرت رسول اللّه ﷺ في واقعة الخندق أو غيرها، فقد كان هدفهم معلنًا وهو قتل النبي ﷺ وصحابته وأهل بيته، والقضاء على دينه. فالقتال في حالاتٍ كهذه دفاعًا عن هذا النبي ودفاعًا عن هؤلاء المسلمين الطيبين،

والقتال دفاعًا عن الدين الّذي جاء به النبي ﷺ فهذا قتالٌ مأمورٌ به من اللّه ومحبوب من اللّه عزّ وجل، فهو خير مصداقٍ للقتال في سبيل اللّه وهو دون ريبٍ موصلٌ إلى اللّه، فمن قاتل في معارك كهذه فهو مأجورٌ، ومن قُتل فيها فهو شهيد.

ومن النماذج أيضًا موضوع الدفاع عن الوطن وعن المقدّسات والأهل والكرامة، فهذا قتالٌ محبوب لله مطلوبٌ له، وهو مصداقٌ بارزٌ للقتال في سبيل اللّه سبحانه وتعالى. وكلّ من يسعى في هذا السبيل فإن قُتل في سعيه فهو شهيد، ولا يُشترط أن يقتل في المعركة – وهذا مبحثٌ فقهيٌ لن نخوض تفصيله هنا بل نكتفي بالنتيجة –، بل قد يُعتقل من منزله أو يقتل في سيارته بسبب موقفه وإيمانه والتزامه بخط طاعة اللّه عزّ وجل فيكون شهيدًا، كسميّة وياسر اللّذَيْن استشهدا في بداية الدّعوة الإسلاميّة إثر تعذيب أبي جهل لهما. هذان شهيدان مع أنهما لم يقتلا في معركة، بل أُخذا من بيتهما

وعُذبا ليتراجعا عن إيمانهما ولكنهما رفضا ذلك.

ومن النماذج أيضًا بعض الصّحابة الذين كان يرسلهم رسول اللّه ﷺ إلى بعض القبائل ليُعلِّموا أهلها القرآن وأحكام الدين فيقوم بعض من في القبيلة بقتل هذا الصحابي المرسل من النبي ﷺ، هذا القتل هو من مصاديق القتل في سبيل اللّه، والمقتول شهيد.

إذًا فالمعيار أصبح واضحًا، من مشى في أيّ دربٍ من الدروب الموصلة إلى اللّه ممّا فيه رضاه عز وجل، سواء أكان طالبًا للعلم أو مجاهدًا أو طالبًا للرزق، وقُتل في هذا الطريق المحبوب إلى اللّه عزّ وجل، فهو شهيدٌ عنده سبحانه. ومن بين هؤلاء من يقتل في معركة لله كمعركة بدرٍ وأحد مع رسول اللّه ﷺ، ومعركةُ الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء الّتي كانت من أجل حفظ دين اللّه وكرامة عباد اللّه وخير الأمّة الإسلاميّة. فالمعيار الأساس في الكلام عن الشهادة في سبيل اللّه وفي تحديد معنى سبيل اللّه هو أن يكون الفعل مُرضيًا لله عزّ وجل، ونعبّر

في الأدبيات المعاصرة أنَّ مشروعيّة الهدف ومشروعيّة الطريق ومشروعيّة القضيّة التي نؤمن بها ونسعى في سبيلها وأحقيّتها وسلامتها يجب أن تُلحظ بالمقاييس الإلهيّة والشرعيّة لنحدّد هل هي قضيةٌ محقةٌ ومشروعة، وهل هذه الطريق الّتي نسلكها مشروعة وصحيحة ومرضية لله عزّ وجل. فهذه هي المسألة وهذا هو التحدّي الكبير الذي يواجه كلّ إنسان. ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يطمئن إلى كون الطريق الّذي يسلكه أو القتال الذي ينخرط فيه مشروعًا ومحقًا ومرضيًا لله سبحانه وتعالى؟

في البحث عن معيار للحق

بهذا السؤال نصل إلى نقطةٍ بالغة الحساسيّة، بل هي أصل المشكلة والتحدّي الكبير، ذلك أنَّ الحق قد يشتبه على كثيرٍ من الناس، وهذا موردُ ابتلاءٍ في عصرنا كما في كل العصور السالفة، بحيث يقف الإنسان في جبهة ويقاتل معها ظنًا منه واعتقادًا بأنَّ ما يقاتل في سبيله هو الحق، فيقدّم فيه التضحيات الجسام، ولكنّه في

الواقع يكون مناصرًا لجبهة الباطل خطأً واشتباهًا، لغياب البصيرة الّتي بها يفرّق بين الحق والباطل، والاحتكام إلى عصبيّة حزبيّة أو قُطريّة أو قوميّة أو طائفيّة، أو اتّباعًا منه لأهواء نفسانيّة، أو طلبًا لمصالح دنيويّة، أو غير ذلك من المضلات، والتاريخ يعجّ بمثل هذه النماذج ولا داعي لذكر أمثلة.

فالتحدي الحقيقي هو كيف يضمن الإنسان صحّة تشخيصه، لأنَّ موضوع القتل وبذل النفس حسّاس أكثر من أيّ شيء آخر، فما هو مصدر تحديد أحقيّة خيارات الإنسان؟ فلو افترضنا أنّ لدى أي منّا حقل يريد زراعته وواجهته في ذلك بعض الأمراض البيئيّة أو مشكلة في البذر أو الرّي، فإنّه يلجأ إلى مهندسٍ زراعي مختصٍ ليسأله، ومن أراد بناء بيتٍ فإنّه يلجأ إلى مهندسٍ معماري، والمريض يقصد طبيبًا ليعالجه، والطبّ بدوره ينقسم إلى اختصاصاتٍ، فلكلّ مشكلةٍ طبيبها المختص، وهذا ما قامت عليه سيرةُ العقلاء طوال التاريخ، أي العودة إلى

أهل الاختصاص، فمن المستهجن لجوء مريض القلب إلى طبيب أسنان، ولجوء من يريد بناء بيتٍ إلى مهندسٍ زراعي، وهكذا.

وفيما خصّ موضوعنا، فإنَّ الكلام ينصبّ في البحث عن معيار الحلال والحرام، وتحديد ما هو مبغوضٌ عند اللّه وما هو محبوب عنده سبحانه، وهذه حقيقةُ تعاليم الدين أو الشريعة، فيجب أن نعود فيه إلى أهل الاختصاص كذلك، وهم العلماء المختصّون ببذل الجهد في رؤية كتاب اللّه والسنّة النبويّة والاطّلاع على آراء العلماء السابقين واجتهادهم وأبحاثهم وخلافاتهم ومجادلاتهم، في سبيل تحديد الأحكام الإلهيّة – من مباحٍ وواجبٍ ومحرمٍ ومستحبٍ ومكروه – واستنباطها من مصادرها بالاستناد إلى الأدلّة الشرعيّة المعتبرة المذكورة (الكتاب والسنّة وغيرهما)، التي لا يمكن لأيّ أحدٍ استخراج الأحكام منها، لما يحتاجه ذلك من تخصص وتمرّس طويل في جملة من العلوم، وهؤلاء هم الفقهاء من علماء الإسلام.

في الخصائص المفترضة للفقيه

إنَّ ضرورة العودة إلى الفقهاء لتحديد الواجبات وتشخيص الحقائق وتحديد المصالح لا تعني أنَّ كلّ من تخصّص في الفقه يصلح تنصيبه فقيهًا يرجع الناس إليه في تحديد رؤاهم، بل الواجب هو الرجوع إلى الفقهاء المجتهدين المتخصّصين الأمناء على حلال اللّه وحرامه، الأتقياء الّذين يخافون اللّه عزّ وجل، والّذين لا يفتون للناس بحسب أهوائهم ومصالحهم الشخصيّة، أو بحسب مصالح أحزابهم وتنظيماتهم وطوائفهم، أو بحسب توجهات بلدانهم السياسيّة، أو على هوى سلاطينهم، أو خوفًا على أنفسهم منهم. وهذه النماذج لطالما وجدت في التاريخ كما هي اليوم، وهم الّذين يّسمّون بوعّاظ السلاطين، بل المفترض في الفقيه أن يكون أمينًا مجتهدًا يملك شجاعة قول حكم اللّه، ولا يخاف ولا يطمع ولا يطلب سوى مرضاة اللّه عزّ وجل.

إنَّ توفّر هذا الصنف من الفقهاء ورجوع الناس إليهم

يشكّل حلًا لمعضلة كبيرة نشهدها في أيامنا المعاصرة على امتداد العالم الإسلامي، وحتى بين الشيعة، وأقول الشيعة لأنَّ الوضع الشيعي يمتاز في هذا اللّحاظ عن غيره لما يتوافر عليه من الحصانة والضمانة الّتي توفرها فكرة المرجعيّة الدينيّة، ذاك أنَّ الفقيه المفترض اتّخاذه مرجع تقليد عند الشيعة يفترض كونه، مضافًا إلى فقاهته واجتهاده، حيًّا عادلًا ورعًا، بل يشترط بعضهم أن يكون على درجةٍ عاليةٍ من الورع والتقوى، ويضيف البعض شرط الزهد في الدنيا. كما ومن جملة الشروط التي يسلم بها أغلب الفقهاء أن يكون الأعلم من بين الفقهاء، أي الأقدر على استنباط الشريعة الحقّة، ولهذا فلطالما كانت المرجعيّة الدينيّة الفقهيّة عند الشيعة تنحصر بمجموعةٍ معيّنةٍ من كبار الفقهاء يعود إليهم أتباع هذا المذهب، يشكلون نوعًا من المركزيّة في الموضوع الفقهي، وهؤلاء كما عرّفت يجب أن يتصفوا بكثيرٍ من الصفات الحميدة الضابطة لهم عن الزلل أو الخطأ إلى أقصى حدٍّ، ما يُشكّل – نسبيًا – عامل ضمانةٍ قوي.

أقـول: برغم ما ذكرت فإنَّ المشكلة الخطيرة التي تواجه الأمّة الإسلاميّة عمومًا أنَّ ساحة الفقه لم تخلُ يومًا من بعض المتفقّهين الّذين يدعون استحقاقهم لأداء دور الفقهاء فيتنطّحون لمهمّة الإفتاء وإصدار الأحكام وبثّ الآراء من غير أن يكون لذلك أهلٌ. وهذه المشكلة تحتاج إلى حلّ جدّي ومعالجةٍ جذريةٍ وحقيقيّة، والخطورة أنَّ الدور المفترض للفقهاء في نظر العوام يتعدّى مجرّد معرفة الحكم ليشمل القدرة على تشخيص الموضوعات والمعرفة بالزمان والمكان والسياسة وتحديد مصالح الأمة ومكائد الأعداء وتحديد الأولويّات. فكم من شاب تجده اليوم وفي كثير من الساحات يخوض معركةً في خدمة الباطل أو يسلك مسلكًا مسيئًا للإسلام نفسه، يحرّكه توجيهٌ من شيخٍ مدّعٍ للعلم، أو فتوًى لأحد المتعدّين على الفقاهة والإفتاء، دونما درايةٍ منه إن كان شيخه فعلًا مجتهدًا ومتخصّصًا وفقيهًا وعالمًا، وهذه مسألةٌ كبيرةٌ وعلى درجةٍ كبيرةٍ من الحساسيّة، لأنَّ الإنسان قد يخوض بناءً

على تشخيص هؤلاء ما يودي بحياته، والإنسان ليس له إلا نفسٌ واحدةٌ، فإن هو عرّضها للمخاطر في قتالٍ باطلٍ فإنَّه سيخسر الدنيا والآخرة.

ولذلك فالكلّ مدعوٌ إلى أن يكون دقيقًا وحذرًا في تحديد مرجعه الّذي يستند إليه في تشخيص المصالح وتحديد الأولويّات والواجبات. وأنا أقول كلامي هذا من موقع المسؤوليّة الدينيّة، ونحن كحزبٍ مقاومٍ يدعو النّاس إلى القتال، فإنّنا نضع هذا الأمر نصب أعيننا، ويحقّ لأيّ أحدٍ أن يسألنا ويناقشنا عن مصدر مشروعيّة قراراتنا ومعاركنا، أنّ معاركم تخوضونها بناءً على فقاهة مَن؟ وعلم مَن؟ وتقوى مَن؟ ودين مَن؟ واجتهاد مَن؟ ورأي مَن؟ لأنَّ معاركنا، كما كلّ المعارك، قد تودي بحياة كثيرين، فلا بدّ أن نحسب لمساءلة الناس ومساءلة اللّه قبلهم جميعًا إن قَتلنا أو قُتلنا ما هو مستندنا ومصدر مشروعيّتنا، وجوابنا على ذلك جاهزٌ وواضحٌ إن شاء اللّه.

نماذج واقعية لفعاليّة دور الفقهاء

بعض الحالات يكون فيها من الوضوح ما لا يحتاج إلى سؤال، كحربنا مع الكيان الصهيوني الغاصب، إذ منذ قيام هذا الكيان فإنَّ كبار علماء السنّة والشيعة ومراجعهم أجمعوا أنَّ قتال الصهاينة الإسرائيليين والوقوف في وجه مشروعهم جائزٌ بل واجب، وأنَّ من يقتل في هذا الطريق فهو شهيد، وأنَّ المال الذي ينفق في هذا الطريق هو في سبيل اللّه. ولو أردنا أن نصف معركةً أحق وأجلى وأوضح وأكثر إجماعًا من الفقهاء والمجتهدين من هذه المعركة فإننا لن نجد. طبعًا لا يخلو الأمر من بعض من يشكك في صوابية هذه المعركة ومن يصف من يقتل فيها بأنهم ليسوا شهداء وأنهم يرمون بأنفسهم إلى التهلكة، ولكنَّ الواقع هنا واضح، وهو أنَّ مجموعةً من شذاذ الآفاق أتوا من كلّ العالم لاحتلال بلدٍ اسمه فلسطين، واغتصبوا أرض غيرهم وممتلكات غيرهم، فنهبوا الأرض واعتدوا على المقدسات وطردوا الشعب الأصلي، وهذا كان

واضحًا لكلّ مراجع وفقهاء الإسلام فاعتبرت قضيتنا عادلةً محقةً مشروعةً.

ولكن قد يلتبس الموضوع على العباد في بعض الأحداث، فيحتاجون ويضطرّون إلى معرفة توجيه الفقيه. من الأمثلة على ذلك، حدثٌ من القرن الماضي، عندما هاجمت القوى الاستعماريّة العالميّة بلادنا، فقد كانت السلطة العثمانية وقتها حاكمةً للعراق ولم تكن هذه الحكومة بالمعنى المذهبي حكومةً شيعيّة، بل محسوبةً على أهل السنّة، بمعزل إن كان السلطان العثماني ملتزمًا بأحكام أهل السنّة أم لا، إذ كلنا نعرف فعال سلاطين الدولة العثمانيّة بالناس، من سنّة وشيعة ومسيحيين وغيرهم. ولكن عندما جاء الإنجليز سنة 1918 و1919 و1920م لاحتلال العراق وقع الناس في حيرة إن كان واجبهم مواجهة الإنجليز المحتلّين دفاعًا عن السلطان العثماني، أو الوقوف على الحياد إذ إنَّ أحد الطرفين سلطان عثماني ظالم والآخر دولةٌ مستعمرةٌ محتلّة، فلا

تجب مناصرة أحدٍ منهما، فلجأ الناس إلى رأي المرجعيّة الدينيّة المتمثلة بكبار مراجع التقليد وقتها الذين أفتوا بوجوب الوقوف في وجه الاحتلال البريطاني، وعبّؤوا العشائر والمؤمنين لقتاله، بل أنَّ بعض الفقهاء شارك بنفسه في هذا القتال وبعضهم استشهد أبناؤهم فيه، ولم يعتبر أحدٌ منهم أنَّ هذا القتال دفاعٌ عن السلطنة العثمانيّة بل اعتبروه جهادًا لمنع احتلال العراق من قبل الإنجليز.

ونفس الموقف كان من فقهاء الشيعة في مواجهة الاحتلالات التي جاءت لتقطع أجزاءً من إيران، وبعضهم ذهب من العراق إلى إيران ليقف ويواجه ويفتي ويجاهد، هؤلاء لم يكونوا أنصارًا للنظام الملكي البهلوي، ولكنّهم قاموا بذلك دفاعًا عن شعبهم وبلدهم في وجه الغزاة والمحتلين.

هذه الأمثلة وغيرها الكثير مما شهده تاريخ الإسلام والتشيّع تبرز بوضوح الدور الفعال للمرجعيات الدينية

الإسلامية في حفظ المصلحة العامة وحفظ البلاد من السقوط.

وبما مرّ، يصبح واضحًا أنَّ اللجوء إلى الفقهاء وأهل الاختصاص ممن له معرفة بالزمان والمكان والأولويات يحدّد التكليف والأولوية ويضع الأمور في مواضعها الصحيحة ويبرِّئ ذمّة الإنسان أمام ربّه.

تنبيه لا بدّ منه

من الأمور التي ينبغي التنبيه منها أيضًا في سياق حديثنا، وهو أحد أكبر ابتلاءاتنا المعاصرة، ما تعجّ به مجتمعاتنا والفضائيّات من أشخاصٍ لا تتخطى سني تحصيلهم [العلمي] أصابع اليد الواحدة يقدّمون أنفسهم بلباس أهل العلم ويظهر الواحد منهم على شاشة التلفاز ليفتي بالحلال والحرام والمكروه والمستحب، وهو من خطير الأمور التي قد يغفل عوام الناس عنها، لأنَّ المتلبّس بلباس العلم عند كثيرين هو عالم، فيأخذون بأقواله

ويعملون بها، ولذلك لا نجد استهجاناً – بين الناس – لما نسمع من فتاوى غريبة عجيبة تنتشر على الشاشات مع أنّها لم تطرح عند أيّ من فقهاء المذاهب المختلفة، بل وتكون أحيانًا مثارًا لاستهزاء الآخرين بالإسلام، مع أنّها لا تستند إلى كتاب اللّه ولا سنة رسوله، ولا تنبع عن فقاهةٍ أو اجتهادٍ حقيقيَيْن بل تخلو من أية متانة علمية وتحقيقٍ علمي حقيقي. والكلام عن هذه الفئة ليس خاصًا بطائفة معينة بل يشمل كل الطوائف.

وعليه، على الناس التنبّه إلى أنَّ الإفتاء ليس جائزًا لأي أحد، وليس كل من يلبس لباس العلم عالمًا ومؤهلًا للإفتاء في شؤون الناس وحياتهم، والأخطر في هؤلاء أنّهم لا يتورعون عن الإفتاء في الدماء وفي الأعراض، وهي أكثر ما أمر اللّه سبحانه وتعالى بالاحتياط به، فينصّب أحدهم نفسه أميرًا فيحكم ويقضي بالقتل وقطع الأيدي والجلد وسفك الدماء، من دون أن يسأله أحد عن نصيبه من العلم، وعن مستنده في إصدار

فتاواه، وعمّا إذا كان يمثّل الدين الإسلامي الّذي أتى به رسول اللّه ﷺ فعلًا.

لا ننكر أنَّ في الفقه اجتهادًا، وأنَّ بين الفقهاء اختلافات في الآراء، ولكنّ المشكلة أنَّ هؤلاء ليسوا أصلًا مجتهدين ولا أهل اختصاص حتى نقول ببراءة ذمتهم. فهذه واحدة من المعضلات الكبرى والابتلاءات الكبرى التي تواجه المسلمين في هذا الزمن، خصوصًا مع الإقبال الشديد الذي نشهده من المسلمين في بعض الدول على معرفة تعاليم دينهم، وبالأخص عند شرائح الشباب، بحيث باتت عائلات بأكملها تبحث عن حقيقة دينها وعن الأحكام التي يفرضها هذا الدين، فالطامّة أن يكون هؤلاء المنافقون هم من يأخذ عنهم هؤلاء أحكام الدين، فيقدمون لهم آراءهم الشخصيّة على أنها تعاليم الإسلام دون الاستناد إلى كتاب اللّه أو سنّة رسوله. والمصيبة هذه كما ذكرنا أضحت تعمّ كل المجتمعات، ودخلت في كل تفاصيل الحياة، وحتى في أحكام الحياة الزوجيّة والحياة الاجتماعية

وأحكام التجارة والبنوك، والأخطر كما ذكرنا أنها دخلت على مسائل الحرب والسلم والقتال والدماء.

تجربة المقاومة الإسلاميّة

أختم هذا البحث بالوقوف على تجربتنا في المقاومة الإسلاميّة في حزب اللّه، فإنّنا نؤكّد دائمًا على أهمية توفر جانب الشرعيّة الدينيّة لكل أمرٍ نقوم به، وذلك يحتمه علينا التزامنا الّذي لا يخفى على أحد، فإنّي وإخوتي وأخواتي في هذه المسيرة ندّعي أنّ غاية مطلوبنا في كل أفعالنا مرضاة اللّه وندّعي أنّنا طلّاب آخرة، فإن أنعم اللّه علينا وأعطانا شيئًا من الدنيا فله سبحانه الحمد والشكر، ولكن الأساس لدينا هو حرصنا على صلاح أمر آخرتنا وعلى أن يكون الطريق الذي نخوضه محققًا لرضا اللّه عز وجل.

ولذلك، فإنّنا في أي موقفٍ من مواقف اتخاذ القرار للدخول في أيّ ساحة معركة وأي ميدان من ميادين

المواجهة لا نلجأ إلى أهوائنا ومصالحنا الشخصيّة والدنيويّة، بل نعود إلى آراء فقهائنا وكبار مراجعنا الّذين هم على أعلى مستويات الفقاهة والعلم والاجتهاد والتقوى والأمانة والمعرفة بالزمان والمكان، وهذا كان التزامنا من اليوم الأول عندما خرج مجاهدونا في العام 1982م لمواجهة العدو الإسرائيلي، وبعض المتدينين اليوم يتذكرون تلك الأيام التي كان البعض يقول لنا فيها إنَّ قتال إسرائيل حرام، ولو استمعنا لهم لما قاتلنا إسرائيل، ولكنّنا يومذاك رجعنا إلى مراجعنا الكبار، وهنا كانت أهميّة الالتزام بقيادة ومرجعية الإمام الخميني قدس سره، والّذي أعطى وبوضوح شديد الشرعيّة لقتال إسرائيل والشرعيّة لهذه المقاومة والشرعيّة لهذا النمط من العمل الجهادي الاستشهادي، إذ لو لم يكن بين أيدينا هذا المستند الشرعي بأنَّ فعالنا فعال تقرُّبٍ إلى اللّه فكيف كان سيمكن لنا أن نأتي بأخٍ من إخواننا ونفخخ له سيارةً ونوجهه ليفجر نفسه في العدو الإسرائيلي؟

هذا كان التزامنا بتوجيهات الإمام قدس سره والتزامنا من بعده بالإمام علي الخامنئي دام ظله، وهو ما يدفع بعض الناس ليعيبوا علينا ذلك، ولكننا في المقابل نستغرب منهم كيف يتخذون قراراتهم ويدخلون في حروب ويعقدون صفقات السلم والحرب! فإلى أي مصدر مشروعيّة يرجعون وإلى أي أهل اختصاص؟ وهل ما يقومون به محققٌ لمرضاة اللّه عز وجل؟ إنَّ مرجعنا الذي نستند إلى توجيهاته يبذل أقصى جهدٍ مع ما يتحلى به من الأمانة والتقوى والورع والوعي والمعرفة ويحاول أن يستنبط حكم اللّه سبحانه في مسائلنا الابتلائيّة، ونحن نأخذ هذا الحكم ونطبقه على مسؤوليتنا كمكلفين.

فهذا كان حالنا منذ البداية، وبهذا الفهم سلكنا هذه الطريق، وبهذه الضمانة قدّمنا كلّ التضحيات، وبهذا الوعي سقط شهداؤنا وبه الآن يسقط شهداؤنا، مدركين جيّدًا، هم وعوائلهم، أنّهم يسقطون في طريق الحقّ وفي سبيل اللّه. فالقارئ لوصايا الشهداء والمشاهد

لما ينشر منها على قنواتنا من قبل الجهات المختصّة من وصاياهم المصوّرة سيدرك ما يتحلّى به هؤلاء من الطمأنينة والسكينة والعشق والمعرفة، وسيعرف أنّنا لا يمكن أن نمشي في أيّ درب خطوةً واحدةً ما لم نكن على يقين واطمئنان بأنّ خطوتنا هذه مرضية لله عز وجل، ذاك أنَّ غاية منى الواحد منا الوصول إلى رتبة الشهيد في الآخرة، وطريقنا يوصلنا إلى هذه الغاية، وغاية ما نطمح ونتطلع إليه هو أن يأتي يومٌ نحشر فيه مع رسول اللّه ﷺ ومع حفيد رسول اللّه سيد الشهداء أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام. ولذلك، لا يمكن أن نغامر أو نخاطر أو نتعجّل في خياراتنا، بل أنَّ نكون حريصين جداً ودقيقين، وهذا ما ندعو إليه المسلمين جميعًا، فكلّ حريصٍ على آخرته لا بدّ له من أن يدرس خطواته جيّدًا، ليس فقط في الجانب السياسي أو الميداني أو العسكري، إنّما أولًا وآخرًا بلحاظ الجانب الشرعي الّذي يحقق مرضاة اللّه سبحانه وتعالى.

وقفة ختامية مع مناسبة يوم الشهيد

تطالعنا في هذه الأيام مناسبةٌ عزيزةٌ نحييها كلّ سنةٍ وتصبّ في صلب موضوعنا، وهي مناسبة «يوم شهيد حزب اللّه»، والّتي تصادف في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني. طالما أنَّ كلامنا في الفصل الأخير تناول مفهوم الشّهيد والبحث في خصائصه ومكانته فلا ضير من الوقوف قليلًا على منشأ هذه المناسبة.

أصل المناسبة يعود ليوم الحادي عشر من تشرين الثاني للعام 1982م، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، حيث كانت قواتهم قد وصلت إلى الجبل والبقاع والضاحية وبيروت، وكان من الممكن أن يكملوا إلى بقية لبنان. بعد هذا الاجتياح بعدّة أشهر من نفس العام في شهر تشرين الثاني، قام أمير الاستشهاديين الشاب «أحمد قصير» بعمليّة نوعيّة استثنائية اقتحم فيها بسيارته المليئة بالمتفجرات مقرّ الحاكم العسكري

الإسرائيلي في مدينة صور وفجّر نفسه فيه، ما أدّى إلى تدمير هذا المبنى ومقتل ما يزيد على مئة وعشرين من ضباط وجنود جيش الاحتلال الإسرائيلي، وكانت تلك أكبر خسارة يمنى بها الجيش الإسرائيلي لعلّه منذ قيام الكيان الصهيوني، فأن يقتل لهم في عمليّة واحدة وفي لحظة واحدة هذا العدد من الضباط والجنود مقابل رجلٍ واحدٍ، فلعلّهم لم يشهدوا منذ قيام الكيان حتى اليوم شيئًا مماثلًا. كلنا يذكر كيف جاء شارون، وكان يومها وزيرًا للحرب، ومعه كبار ضباطه وجنرالاته ووجهه كالحٌ حزين، وقف على الأطلال معبّرًا عن خيبة أمل كبيرة بما اعتقده من أنَّه دخل لبنان وأدخله إلى العصر الإسرائيلي وإلى الأبد، وفي تلك اللحظة لو كان قُدّر لنا الدخول إلى عقل شارون وقلبه لكنّا وجدنا الخيبة والفجيعة والإحساس الكبير بالفشل.

باختصار، يمكننا القول إنَّ تلك العمليّة الاستشهاديّة كانت بداية انتصار المقاومة، ومنذ ذلك التاريخ وُضعت

المقاومة على خط الانتصار، وبدأت الانسحابات الأولى منذ العام 1985م، وتمّ الانسحاب النهائي والأخير في العام 2000م. الانسحابات وقعت في فترات متقطعة ولكن منذ ذلك التاريخ وضعت المقاومة الوطن كلّه على سكة الانتصار، ووضعت المشروع الإسرائيلي في لبنان وأهدافه على سكة الهزيمة والفشل، ولذلك فإنّنا ننظر إلى هذه العمليّة بوصفها عمليّةٍ تأسيسية، هي أولًا تأسيسية في نمط عمليات المقاومة في العمل الاستشهادي الهادف، ثم تأسيسية في العمل العسكري، ثم تأسيسية للانتصار الذي حدث لاحقًا وعلى مراحل توجت بالتحرير في العام 2000م.

طبعًا بعد عمليّة الاستشهادي أحمد قصير، تقدّم استشهاديون آخرون من حزب اللّه ومن حركة أمل ومن قوى وفصائل مقاوِمة أخرى، ونفّذوا عمليات نوعيّة على نفس الطريق. فمع هؤلاء الاستشهاديين وقبلهم وبعدهم كانت أعدادٌ كبيرةٌ من المقاومين والمجاهدين تملأ

الساحات والميادين، وتصنع الانتصارات وتُلحق الهزيمة بالعدو، بعضهم سقط جريحًا وأقعدته جراحه عن مواصلة الطريق، وبعضهم وقع أسيرًا وقضى في سجون العدو من أنصار إلى الخيام إلى عتليت إلى سجونٍ داخل فلسطين المحتلة لسنوات طويلة، وبعضهم بقي بيننا معافًى من كل هذه الأمور، وبعضهم استشهد في سبيل اللّه سبحانه وتعالى. وكانت هذه القافلة العظيمة والكبيرة من التضحيات والشهداء، وقد تعاظمت هذه التضحيات وكبرت، وتحقّق معها المأمول من النصر والعزّة والكرامة والمكانة في الدنيا والآخرة.

نأمل أن تبقى هذه الذكرى حاضرةً وقويّةً في حياتنا لما لها من تأثير وخصوصًا على أجيالنا الآتية، ولطالما كان إمامنا الخميني قدس سره يوصي بأن لا ينسى الأحياء ذكر هؤلاء الشهداء، وأن يقرؤوا وصاياهم، وأن يتعرّفوا على سِيَرهم، وأن يعرفوا فضل العوائل الشريفة لهؤلاء الشهداء على الأمّة وعلينا جميعًا، إضافة إلى فضل

المضحين من جرحى وأسرى محرَّرين وأسرى ما زالوا في السجون.

نسأل اللّه سبحانه التوفيق لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من الشهداء في سبيله إنّه سميعٌ مجيب.

علينا أن نغتنم هذا العمر في
طاعة الله وعبادته، وفي العمل
الصالح، وأن يكون بالغ إقبالنا
على الدنيا في ما نحتاجه منها.
أمّا الإسراف والتبذير والإقبال
على الدنيا والغرق في وحولها
فإنه يؤدي إلى المخاطر.

ISBN 978-614-464-004-3
9 786144 640043

دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

DB UK 00961 3 336218

En English
Fr French
Ar Arabic
Fa Persian
Tr Turkish
Sw Swahili
Ur Urdu
Es Español
Ha Hausa
Bs Bosanski